جنة الكفار

سفير عثماني في باريس سنة 1721

دراسة وتحقيق

عبد الرحيم بنحادة

تقديم د. خالد زيادة



جنة الكفار

سفير عثماني في باريس سنة 1721

سفارتنامه محمد أفندي

دراسة وتحقيق

عبد الرحيم بنحادة

أستاذ التاريخ الحديث

معهد الدوحة للدراسات العليا

تقديم د. خالد زيادة

جنة الكفار
سفير عثماني في باريس سنة 1721 سفارتنامه محمد افندي

دراسة وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة

تقديم: خالد زيادة

الإيداع القانوني : 2017MO0321

ردمـــك: 978-9954-39-460-1

الطبعة الأولى : 2017

منشورات دار أبي رقراق، الرباط، المغرب

الطباعة والإخراج الفني

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم 3 ، حسان - الرباط
الهاتف : 83 75 20 37 05 - الفاكس : 89 75 20 37 05
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com



إلى أمي

المحتويات

القسم الأول: الدراسة

جنة الكفار
سفارة محمد افندي إلى فرنسا سنة 1721
السياق والسفير والنص

القسم الثاني: التحقيق

بيان ما ذكره محمد أفندي

المرسول من طرف الدولة العلية إلى فرنسا

وجميع ما شاهده هناك

ملاحق

تقديم

د. خالد زيادة

كانت مناسبة سارة أن أكتشفت بإن الزميل الباحث الدكتور عبد الرحيم بنحادة قد عثر على ترجمة عربية للتقرير السفاري الذي أنجزه محمد أفندي عن فرنسا بمناسبة زيارته لها على رأس سفارة أوفدها السلطان العثماني أحمد الثالث إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر عام 1721.

كنت قد تعرفت إلى نص تقرير السفير المترجم إلى الفرنسية خلال إعدادي لأطروحتي عن التأثير الفرنسي على العثمانيين في القرن الثامن عشر. وقد عزمت على ترجمة هذا النص إلى العربية، غير أن ذلك لم يتم بالسرعة المرجوة وتأخرت سنوات قبل استكمال الترجمة ونشرها سنة 2014 في القاهرة مع مقدمة ركزت فيها على مقارنة بين تقرير السفير العثماني ونص الرحلة التي ألفها قرنا من الزمن فيما بعد رفاعة الطهطاوي الذي اعتبر لفترة طويلة مكتشف فرنسا ومعرفها في أوساط النخبة المثقفة العربية.

وقد جاء اهتمامي بهذه السفارة والتقرير الذي كتبه عنها السفير محمد جلبي، في إطار دراستي للمؤثرات الفرنسية على العثمانيين خلال القرن الثامن عشر، من ضمن اهتمامي بعلاقات العالم الإسلامي، والدولة العثمانية بوجه خاص، بأوروبا، في مرحلة دقيقة ومفصلية من تاريخ العلاقات بين العالمين الشرقي والغربي. ولعل "سفارتنامه فرنسا"، هي أول نص مكتوب يسجل وصفًا مسهبًا للإنجازات الأوروبية في الميادين العسكرية والعلمية والتقنيات والفنون والعمران، وهو الأمر الجديد في الوعي العثماني في تلك الآونة التي مرّ عليها ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمن حتى يومنا هذا.

ولم يمضِ وقت طويل على نشر الرحلة حتى التقيت بالدكتور عبد الرحيم بنحادة الذي أخبرني بأنه عثر على ترجمة عربية لسفارتنامه فرنسا، فشجعته على نشرها، الأمر الذي يضيف بعدًا جديدًا لفهمنا لهذا النص. هذه الترجمة لا نعرف مترجمها أو زمن ترجمتها، إلا أنها تعكس اهتمامًا عربيًا مبكرًا بالمعطيات التي انطوى عليها التقرير لجهة تعريفه بالحياة الفرنسية وجوانب التقدم الذي أحرزه الفرنسيون في المجالات العسكرية والصناعات والفنون والعمران، فضلاً عن وصف العادات الفرنسية وحضور المرأة في المجال العام.

ومنذ ذلك الحين كتب الكثير عن العلاقة بين العالمين العربي- الإسلامي من جهة والأوروبي الغربي من جهة أخرى. وتراوح وعينا لهذه العلاقة بين الإعجاب بالإنجازات والعداء للسياسات، ومع ذلك فإن تقرير السفير محمد جلبي أفندي يحتفظ بقيمته كنص يحتوي على معطيات فريدة في زمنه، كما يقدم فائدة من خلال مقارنته بنصوص سفارات ورحلات أخرى إلى عواصم أوروبا.

وقد أعدّ الدكتور بنحادة دراسة أكاديمية تفصيلية شرح فيها ظروف الرحلة وأسبابها. وعرض لنا أهم السفارات العثمانية إلى العواصم الأوروبية منذ القرن السادس عشر، وهي سفارات مؤقتة أنيطت بها مهمات محددة، كنقل الرسائل أو التفاوض على شؤون الحرب والسلم. وأبرز أنّ سفارة محمد جلبي أفندي إلى باريس أصبحت من أبرز النصوص التي كتبها السفراء العثمانيون، وقد أثارت اهتمامًا فرنسيًا بمضمونها، كما أن إقامة السفير في باريس وتنقله في شوارعها مع وفده المكوّن من خمسين شخصًا قد ألهم الفنانين وآثار حشرية الفرنسيين من كل الطبقات. وقد احتوى التقرير الذي دوّنه السفير مراحل رحلته وزياراته لمعالم باريس العمرانية والعلمية والثقافية قد أصبح نموذجًا نسج على منواله السفراء الذين أوفدوا بعده إلى عواصم أوروبا.

وكان للتقرير تأثير لدى الطبقة الحاكمة في إستانبول لجهة الأخذ بنمط الحياة الفرنسية وخصوصًا لجهة بناء القصور على غرار القصور الفرنسية التي أسهب في وصف عمارتها في تقريره.

ولا بدّ من التنويه بالجهد الذي بذله الدكتور بنحادة في إحاطته بكل ما يتعلق بهذه السفارة وظروفها وأثرها وأهميتها، وتتجلى أهمية نشر النص أيضا في المقارنة بين مختلف الصيغ التي توفرت حول نص الرحلة. وهو بذلك يقدم إضافة جديدة بإتاحته الاطلاع على ترجمة عربية مبكرة ومختصرة، بما يعنيه ذلك من ولادة جديدة لنص ما زال قادرًا على أن يقول لنا الكثير عن بدايات تبدل النظرة إلى أوروبا الحديثة.

بيروت، 2016.12.07

القسم الأول: الدراسة

جنة الكفار

سفارة محمد افندي إلى فرنسا سنة 1721

السياق والسفير والنص

ملابسات وسياق السفارة

في سنة 1665 قرر السلطان العثماني إيفاد أول سفارة إلى النمسا بقيادة محمد قره باشا. لقد كان هذا الحدث بالغ الأهمية في تاريخ الدولة العثمانية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدولة العثمانية والمسلمين عموما لم يتعودوا على إيفاد سفراء إلى الغرب، وظلوا يعتمدون في استجلاب الأخبار عن أوروبا على المخبرين والجواسيس وفي بعض الأحيان على السفراء الأجانب في إستانبول الذين كان بعضهم يلعب دورا مزدوجا في علاقات بلاده مع الدولة العثمانية. ومن جهة أخرى ارتبط غياب سفراء بالوضعية القانونية للمسلمين في دار الحرب وتصور المسلمين للعلاقات التي تنسج مع دار الحرب نظريا.

وفي سنة 1721 وصل إلى العاصمة الفرنسية باريس محمد أفندي موفدا إليها من قبل السلطان أحمد الثالث (1703-1730)، مدشنا بذلك سلوكا ديبلوماسيا جديدا تجاه فرنسا. إلا أن هذه السفارة لم تكن بعثة سفارية عادية، بل كان الهدف منها إلى جانب تجديد توثيق العلاقات مع فرنسا، الاطلاع عن كثب على ما بلغته هذه الأخيرة من تقدم في مختلف الميادين.

فما هي ملابسات وسياقة هد السفارة؟ وما هي درجة تأثيرها في العلاقات العثمانية الفرنسية؟ وفي ماذا تتمثل أهمية ما دونه محمد أفندي خلال رحلته من معلومات بالنسبة للعثمانيين؟ وهل يمكن اعتبار هذه الرحلة مدخلا للتحديث في الدولة العثمانية؟

* * *

في نهاية القرن السابع عشر انهزم الجيش العثماني أمام الحلفاء بقيادة النمسا وروسيا وانتهت هذه الهزيمة إلى توقيع معاهدة كارلوفيتس في سنة 1699. بدأت مآسي الدولة العثمانية التي أفضت إلى هذه المعاهدة مع فشل الجيوش العثمانية في محاصرة فيينا سنة 1683 بقيادة قره مصطفى باشا، فقد عمل العثمانيون في سبيل السيطرة على فيينا على حشد قوات كبيرة من جهة، والسعي

من جهة ثانية إلى التحالف مع فرنسا في الوقت الذي استطاع النمساويون حشد تحالف أوروبي كبير يدعمه البابا. ولم يستطع العثمانيون تحقيق حلم راودهم منذ بداية القرن السادس عشر. لقد كان فشل حصار فيينا إيذانا بتراجعات مجالية مهمة حيث خسر العثمانيون في السنوات الموالية له هنغاريا وأراضي شمال الدانوب وهو ما كان له آثار وخيمة على الأوضاع الاقتصادية للدولة العثمانية، وتوالت الهزائم والتراجعات ما بين 1683 و1699 وكانت المحصلة توقيع معاهدة كارلوفجة (كارلوفيتس).

وتعد هذه المعاهدة فاصلة في تاريخ الدولة العثمانية حيث أظهرت بالملموس ضعف الدولة العثمانية ديبلوماسيا. إنها تشكل منعطفا حاسما ليس فقط في تاريخ الصراع بين الدولة العثمانية وإمبراطورية الهابسبورغ، ولكن أيضا في تاريخ العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي. فخلال قرون عديدة كانت السلطنة العثمانية القوة الرئيسية في الإسلام ومتزعمته في الصراع مع الجيران المسيحيين. ثم عاشت الدولة العثمانية انهيار القوة الإسلامية في مواجهة أوروبا، وتحت أنظارها بدأت أوروبا الشرقية تتوسع بحريا، وكان ذلك على حساب مجالات حيوية إسلامية، وبدأت القوة العثمانية التي كانت فيما مضى قوية تتراجع أمام القوة المسيحية المتفوقة في تقنيات الحرب والبحر.

ولم يستطع العثمانيون، منذ ذلك الحين، تحقيق أي نصر على النمسا. ففي السنة الموالية لمعاهدة كارلوفيتس وقع العثمانيون معاهدة أخرى مع الروس تنازلت الدولة العثمانية بموجبها عن الأراضي التي كسبتها عند بحر أوزف، وهي المعاهدة التي تحمل اسم المكان الذي وقعت فيه الاتفاقية. وتكرس واقع الضعف مع معاهدة باسروفيتش سنة 1718. وقد أملت الأوضاع الديبلوماسية الجديدة على الدولة العثمانية البحث عن تحالفات من داخل أوروبا، فتوجهت الأنظار إلى فرنسا. وهو توجه يمكن أن نعزوه إلى الأسباب التالية:

الأول، أن فرنسا كانت البلد الأوروبي الوحيد الذي يتقاسم الدولة العثمانية العداء لروسيا والنمسا.

الثاني، أن فرنسا، ارتبطت بالدولة العثمانية بعلاقات تاريخية متينة منذ توقيع الاتفاقية الفرنسية العثمانية بين سليمان القانوني وفرنسوا الأول سنة 1536، وكانت هذه الاتفاقية بمثابة الركيزة التي استند إليها العثمانيون .

الثالث، ويتمثل في قوة الحضور الفرنسي تجاريا في أرجاء الدولة العثمانية سواء في إستانبول أو غيرها من جهات العالم العثماني.

لقد كانت فرنسا تعمل دائما على تغذية الصراع العثماني مع الأعداء الأوربيين وقتما تضررت مصالحها في الشرق غير أنها مع ذلك لم تدخل في تحالف رسمي مع الدولة العثمانية مصرح به من خلال اتفاقية. وقد سعت الدولة العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر إلى الدخول في لعبة التحالفات الأوربية وذلك حتى تتمكن من تحجيم ما يترتب عن هزائمها المتكررة. ففي عهد السلطان أحمد الثالث (1703-1730) شرع الصدر الأعظم نوشهيرلي داماد إبراهيم باشا (Nevşerli Damad İbrahim Paşa) في تبني سياسة أوربية تهدف إلى الحفاظ على السلام من أجل الاستفادة من التجارب الغربية في بناء جيش حديث. هذا الانفتاح وجد صداه في المصادر العثمانية اللاحقة حيث يذكر المؤرخ العثماني جودت باشا "ميل الدولة -على عهد السلطان أحمد الثالث- إلى السير على طريق المدنية ورغبتها في ترتيب عسكر منظم".[1]

ولأن فرنسا كانت المسؤولة عن المؤسسات الدينية في الشرق حسب الاتفاقية الفرنسية العثمانية الموقعة زمن سليمان القانوني وفرانسوا الأول، فقد اختلق إبراهيم باشا حجة ترميم كنيسة القيامة في بيت المقدس، ليجد مبررا لربط العلاقات من جديد مع فرنسا، وقد صادف ذلك أن كان لويس الرابع عشر ينتظر ترخيص الترميم من الدولة العثمانية لمدة تزيد عن ثمان وعشرين سنة دون أن يحصل عليه.

---

(1) جودت باشا، **تاريخ جودت**، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، مطبعة بيروت العربية، 1999، المجلد الأول، ص 75.

وقد كان إبراهيم باشا يتمتع بسلطات واسعة مكنته من رسم سياسة تتماشى والاسم الذي حمله عهده حيث عرف عند المؤرخين الأتراك بـــ" لاله دوري" (عصر الزنبق). لقد ظلت عيون إبراهيم باشا شاخصة نحو الغرب، إذ كان شديد الاهتمام بما يجري في العديد من البلدان الأوربية وبدا ذلك من خلال الاستقبالات التي كان يخصصها لسفراء فرنسا وبريطانيا وهولندا. كما تمثل هذا الانفتاح في قيامه بإيفاد سفراء إلى فيينا (1719) وفرنسا (1720-1721) وموسكو (1722-1723) وبولونيا (1730).

وعرف أسلوب التعامل مع الأوربيين تطورا ملحوظا خلال هذه الحقبة وبدا ذلك في الألقاب والنعوت الخاصة بملوك أوروبا، إذ تتردد في المراسلات عبارات من قبيل "صاحب الحشمة والوقار" او "صديقنا الكبير"، وعلى هذا المستوى يمكن القول إن صدارة إبراهيم باشا تؤرخ لتحول كبير في تاريخ العلاقات الأوربية العثمانية.

ومما يجدر تسجيله حول الديبلوماسية العثمانية في بداية القرن الثامن عشر هو التحول في تسمية من كان يوفدهم الباب العالي إلى الغرب من مجرد مبعوث إلى "إيلجي" (سفير). لقد اقتصر الأمر في السابق على مبعوثين غالبا ما كانوا يختارون من حجاب السلطان. وكانت المهام الموكلة إليهم محددة وتقتصر على تسليم الرسائل السلطانية أو التصديق على المعاهدات أو حضور مراسيم التنصيب والتولية.

أما في القرن الثامن عشر فقد أصبحت مهام "السفير" تتجاوز الشكليات وأصبح له دور في التفاوض وأضحى من واجبه تقديم تقرير مكتوب عقب عودته يصف فيه البلد الذي توجه إليه، ولم يعد السفير مثلما كان عليه سابقا من حجاب السلطان بل أضحت مهمة السفير وظيفة تنتمي لجهاز بيروقراطي يرأسه رئيس الكتاب، الذي تحول مع مرور الزمن إلى مسؤول عن تنسيق العمل الديبلوماسي العثماني قبل أن تحدث وزارة خاصة بالأمور الخارجية.

* * *

السفارات العثمانية السابقة

قبل وصول يكرمي سكز جلبي محمد أفندي (yirmi sekiz çelebi Mehme Efendi) إلى فرنسا، كانت الدولة العثمانية تنظر إلى التبادل الدبلوماسي مع أوروبا بنوع من الدونية، فأوروبا هي التي كانت بحاجة إلى الدولة العثمانية، وبالتالي فقد كانت بلدانها تتوق إلى إقامة سفارات قارة في إستانبول. ولعل هذا أيضا هو ما يفسر قلة البعثات العثمانية إلى أوروبا. فخلال المرحلة الممتدة ما بين 1533 و1720 لم يتجاوز عدد البعثات إلى فرنسا مثلا ستة[1].

ففي سنة 1533 أوفد سليمان القانوني مبعوثا خاصا لإقناع فرنسا بالعدول على التحالف مع شارل الخامس، وكان ذلك في ظل الصراع المحتدم بين امبراطورية الهابسبورغ والدولة العثمانية، والرغبة العثمانية في الاستفادة من العداء بين فرانسوا الأول وشارل الخامس. وفي سنة 1569 وصل إلى فرنسا كل من إبراهيم بك من أجل تجديد الاتفاقية الفرنسية العثمانية ومحمود بك، وهو متحول ألماني كان يشغل منصب الترجمان الثاني في الدولة، من أجل طلب يد الأميرة مارغريت دو فالوا (Margaret de Vallois). وفي خريف 1581 وصل مبعوثان من قبل السلطان مراد الثالث، يتعلق الأمر بكل من ذوّاق السلطان (جاشنكر) حسن أغا الذي قدم دعوة للملك هنري الرابع لحضور حفل ختان الأمير محمد، والمتفرقة علي جلبي الذي كان يحمل للملك الفرنسي الاتفاقية المجددة والموقعة في 15 يوليوز 1581. ومعلوم أن هذه السفارة جاءت بعد توصل العثمانيين إلى اتفاقية مع إسبانيا كانت مؤشرا لانسحاب الطرفين، الإسباني والعثماني، من البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة 1607 استقبل الملك هنري الرابع أيضا مبعوثا عثمانيا آخر وهو مصطفى أغا، ولم تتأخر الدولة العثمانية في إيفاد مبعوث آخر حيث وصل إلى باريس أحد جاووشات السلطان حسين بك الذي قام بإخبار الملك الفرنسي بتولية

---

(1) J-B. Bacque Grammont, S. Kunarelp et F. Hitzel, *les représentants permanents de France en Turquie (1536 - 1991) et de la Turquie en France (1797 - 1991)*, Varia Turcica, XXII/1, 1991, p.109.

عثمان الثاني وقدم اعتذار الدولة العثمانية عما صدر في حق السفير الفرنسي في الأستانة البارون دو سانسي (Le Baron de Sancy)[1].

وفي شهر غشت من سنة 1640 تشير النصوص والوثائق إلى وصول جاووش آخر إلى باريس حيث تم استقباله في أميان (Amiens) من قبل الملك الفرنسي، وقد ترك هذا الاستقبال صدى واسعا في الصحافة الفرنسية بالنظر إلى إقبال الناس، بدافع حب الاستطلاع، على الشوارع التي مر منها. وفي سنة 1669 أوفد محمد الرابع (1648 - 1687) مبعوثه المتفرقة سليمان أغا [2]من أجل إقناع الملك الفرنسي لويس الرابع عشر لدعم بنادقة جزيرة كريت الذين باتوا يعانون من صعوبات كبيرة.

لم تكلل بعثة سليمان أغا بالنجاح إلا أنها مهدت للتحول الذي عرفته مهام المبعوثين، فقد أثارت البعثة مسألة الألقاب المخصصة للمبعوثين، وطالب سليمان أغا بمجرد وصوله إلى طولون أن يعامل كسفير كما يعامل السفراء الفرنسيون في إستانبول. غير أن مطالب سليمان لم تتحقق، وعندما استقبله لويس الرابع عشر، لم يقم من عرشه لاستلام الرسالة السلطانية، وهو ما دفع به إلى رد فعل كلفه قضاء ما تبقى من إقامته في فرنسا في شكل يشبه الحجر الصحي.

إن المثير للانتباه فيما يتعلق بكل البعثات السابقة عن سفارة محمد أفندي أنه لم يكتب عنها ولم تسترع اهتمام المؤرخين العثمانيين، فلا أحد من الحوليين أشار إليها، وكل المعلومات المتعلقة بها توجد في طيات نصوص التقارير الفرنسية والصحافة المحلية في باريس. ويستعصي على المتتبع لها الوقوف على

(1) يعتبر البارون دو سانسي السفير الرابع عشر لفرنسا في الدولة العثماني، أقام في القسطنطينية ما بين 1611 و1619. وقد كان هذا السفير مثقفا من الطراز الرفيع فقد حصل على الدكتوراه في القانون وانشغل أثناء مقامه بإستانبول بتجميع ونقل المخطوطات اليونانية والعبرية. وكان السفير دوسانسي يتقن اللغة العربية. وبعد انتهاء مهمته عاد إلى وظيفته الأصل كرجل دين. وقد يكون توجهه الديني من وراء الحوادث الكثيرة التي عكرت صفو العلاقات الفرنسية العثمانية أثناء قيامه بمهام السفارة في الدولة العثمانية.

(2) حول هذه السفارة، يراجع:

Adile, *Un diplomate turc auprès du Roi Soleil*, Istanbul, 1956.

الصدى الذي تركته في الأوساط السياسية والثقافية العثمانية. قد تكون أسباب ذلك مرتبطة من جهة بـطبيعة التكوين الثقافي لهؤلاء المبعوثين ولكونهم أيضا من الشخصيات المغمورة في تاريخ الدولة العثمانية، ومن جهة أخرى بحجم البعثة من الناحية العددية، حيث كان عدد أفرادها يتراوح بين 5 أنفار و20 نفرا. وهو حجم لن يسمح بانتشار أخبار البعثة بشكل واسع. هذا الكم العددي له علاقة بالخصوص بالسرية التي كانت ترغب فيها فرنسا والبلدان الأوربية المستقبلة، لقد كانت كل البلدان الأوربية تحرص أن تجري مفاوضاتها في إستانبول وفي سرية تامة، وكان من الممكن تبرير وجود مبعوثين أوربيين هناك تجاريا، وقد تماشت هذه الرغبة مع طبيعة العلاقات التي كانت ترغب الدولة العثمانية في إقامتها مع "دار الكفر" على اعتبار أن الشرع الإسلامي يحرم كل تعامل مع دار الكفر إلا في حالات محصورة جدا. ومعلوم أيضا أنه كلما كان هناك جنوح داخل الإدارة العثمانية لتغيير السياسة العثمانية في هذا الباب قابله السفراء الأوربيون في الأستانة بالتدخل من أجل ثني الإدارة العثمانية عنه بالتهويل من أخطار الطريق وصعوبات إنجاز مهام المبعوثين.

* * *

تجديد مفهوم السفارة العثمانية خلال القرن الثامن عشر

في القرن الثامن عشر، ونتيجة للظروف المشار إليها، أصبح العثمانيون أكثر اهتماما بما يجري في الغرب، وبالتالي أصبحت الدولة العثمانية أكثر استعدادا لإيفاد سفراء إلى أوروبا أكثر من مبعوثين قبل أن تسن في سنة 1794 تقليد تعيين السفير المقيم في بعض العواصم الأوربية. وغدت السفارة لا تقتصر على العدد المحدود بل أصبحت تضم موظفين كبار عهدت إليهم بمهام محددة سلفا. فسفارة قره محمد باشا إلى فيينا ضمت 150 نفرا عهدت إلى ثلثهم مهام

محددة[1]. أما محمد أفندي في باريس سنة 1721 فقد كانت حاشيته مكونة من 50 شخصا، وبعد واحد وعشرين سنة، وبالتحديد في سنة 1742، وصل محمد سعيد أفندي إلى باريس، وكان يقيم في جناح يتسع لـ 110 مرافقا. ولعل لهذا العدد دلالاته وتأثيراته، زد على ذلك أن السفراء أصبحوا مطالبين بكتابة تقارير عن مشاهداتهم لأماكن زيارتهم.

لقد اقتنعت الدولة العثمانية أكثر من أي وقت مضى بأنها لم تعد الدولة المهيمنة في أوروبا وفي الشرق، وأن هيمنتها استنفدت، وأن أوروبا لم تعد هي أوروبا القرن السادس عشر، وقد أكد ذلك الوضع العسكري في القرن السابع عشر، إذ لم يعد بإمكان العثمانيين فرض شروطهم في الاتفاقيات والمعاهدات التي تعقب الأزمات والتوترات، وبالتالي لم يعودوا سادة المجال السياسي والاقتصادي الذي هيمنوا عليه حتى نهاية القرن السادس عشر.

في هذا الإطار، سعت الدولة العثمانية إلى استيعاب ما كان يجري في الغرب. والواقع أن العثمانيين، وخاصة الصفوة المثقفة، كانوا يرومون منذ النصف الأول من القرن السابع عشر إلى فهم ما كان يجري في أوروبا، بل عملت هذه الصفوة على توظيف انطباعاتها في كتاباتها منذ ذلك الحين، ولنا أن نعطي مثالا لذلك بقوجى بك، الذي لقبه فرانز بابنكر (Franz Babinger) بمنتسكيو الدولة العثمانية، وحاجي خليفة الذي وظف منجزات الغرب في الجغرافية وعمل على ترجمة (Atlas Minor Mercator). ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أيضا الدور الذي لعبه أبناء أولئك العلوج (المتحولين إلى الإسلام) الذين التحقوا بصفوف الجيش والبيروقراطية العثمانية واشتغل بعضهم مترجما في الديوان العثماني ولنا في (Dimitri Cantemir) (1673-1727) الذي أصبح ويوود (Voivod) أحسن مثال على ذلك.

لم تكن الدولة العثمانية تكتفي بهذه المساعي الشخصية لتكون فكرة عما يجري في الغرب، بل كانت أيضا لا تريد أن تكتفي بما يمده بها التجار

(1) Lewis (Bernard), *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, traduit de l'anglais par Annick Pélissier, Gallimard, Paris, 1984, p.105.

والجواسيس، أو أن تعتمد على مبعوثين بدون تأهيل ديبلوماسي، بل بالاعتماد على سفراء من النخبة لهم من التكوين ما يساعدهم على التوجه بوصف ما يرونه سببا في تقدم الغرب، وإطلاع ذوي القرار من بيرقراطيي الدولة عليه من خلال كتابة ما عرف منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر بالسفارتنامه.

* * *

ما هي "السفارتنامه"؟

إن السفارتنامه ليست تقريرا ديبلوماسيا بالشكل الذي عرف به في نهاية القرن التاسع عشر العثماني، كما أنها ليست رحلة ذات طابع أدبي صرف، بل هي نوع من الكتابات يجمع بين الوصف الجغرافي والإثنوغرافي والتقرير الديبلوماسي السري. وتتجلى وظيفتها بالأساس في تزويد دائرة ضيقة من العاملين في حقل السلطة والنخبة السياسية بمعلومات حول المجالات الموصوفة. وبشكل عام يعتبر المضمون السياسي لهذا النوع من الكتابات فقيرا جدا، فالنص بشكل عام لا يتحدث عن دواعي السفارة ولا يخوض في مضامين المفاوضات كما هو الشأن بالنسبة للمراسلات الديبلوماسية، بل أكثر من ذلك أن السفارتنامه الأولى لا تحتوي على وصف للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجال الذي تم تناوله. ويقتصر الوصف على الاستقبال وطريقة تسليم الرسائل السلطانية دون الإشارة إلى فحواها وتسليم وتسلم الهدايا وما يترتب عن ذلك من توتر يعكس اختلاف الثقافة الديبلوماسية. ويخوض كتاب هذا النوع من النصوص في "التباهي بحكمة السلوك وإثارة الانتباه إلى ضرورة احترام جلالة الإسلام وعظمته وكرامة الملوك"[(1)].

وعلى عكس التقارير الديبلوماسية التي كانت تتداول في إطار بيروقراطي ضيق، كانت السفارتنامه متداولة بشكل أوسع وتتوجه لفئة عريضة من بيروقراطيي الدولة لاطلاعهم على طبيعة وخصائص البلد الذي تمت زيارته،

(1) M. d'Hosson, *Tableau général de l'Empire othoman*, T. VII, p.510

وبالتالي فليس للسفارتنامه أي ميزة سرية ولا أدل على ذلك من وجود عدد كبير من النسخ من هذه السفارتنامه سواء في المكتبات التركية أو الغربية.[1]

ويبدو أن قراءة هذه النصوص لا تأتي بجديد بالنسبة للمؤرخ الأوروبي، غير أنها تعد مفيدة للغاية في رسم معالم الاختلاف الثقافي بين الشرق والغرب بين أوروبا والعالم الإسلامي، وهي وإن لم تقدم معلومات سياسية، إلا أنها تسجل، وفق منهجية محكمة وبإعجاب كبير، التحديث الإداري والتكنولوجي في أوروبا وتقدمه ظاهريا أو ضمنيا حسب مؤلفيها. قد لا يهم كتاب التقارير السفارية النظام السياسي بقدر ما تهمهم مظاهر الحضارة المادية كعناصر أساسية لدعم سلطة الدولة العثمانية وتجديد هياكلها.

وعندما يتصفح المرء هذه النصوص يجدها غنية في وصف المجال وتنظيمه، ويجدها تعج بالمعلومات المتعلقة بالطرق والقناطر، أي أنها تركز بالأساس على كل ما له علاقة بالبنيات المادية منها واللا مادية، وهو ما يبدو من خلال كل الرحلات السفارية العثمانية إلى البلدان الأوربية بدون استثناء.

كانت أول سفارتنامه عثمانية هي تلك التي أنجزها محمد قره باشا مدشنا بذلك كتابة نوع جديد من النصوص كانت بمثابة أداة من الأدوات التي سخرتها الدولة لمعرفة ما كان يجري بالغرب من جهة وللتحديث من جهة ثانية.

وبالرغم من أهمية سفارة قره باشا إلى فيينا والسياق الذي وردت فيه وما ترتب عنها، إلا أن السفارة التي قادها يكرمي سكز جلبي محمد أفندي إلى فرنسا تعتبر الأهم، فقد أرخت بظلالها على كل الرحلات السفارية السابقة واللاحقة. وغدت نموذجا يحتذى من قبل سائر السفراء في طريقة الكتابة ومواضيع الوصف. وأصبح من الصعب على كتاب التقارير السفارية الإفلات من توجيهها، ولم يكن الأمر مقتصرا على السفراء الذين توجهوا إلى فرنسا بل حتى السفراء الذي كانت لهم وجهات أخرى.

---

(1) يمكننا فايق أونات من النسخ المتوفرة لهذه السفارتنامه في مختلف المكتبات الدولية، ينظر:
Faik Unat, *Osmanli Sefrleri ve Sefaretnameleri*, Istanbul 1987.

وقد لعبت هذه السفارتنامه بعد تداولها على مستوى النخب دورا كبيرا في تأجيج الرغبة لدى هذه النخب للتعرف على الغرب وفهم سر التقدم الأوروبي. وتحول بعض هذه السفارتنامه إلى خارطة طريق بالنسبة للسلطنة العثمانية في اتجاه تحديث مؤسساتها، خاصة مؤسسة الجيش والمؤسسة المالية، وهو ما يمكن أن يسجله المتتبع للسفارتنامه التي كتبت لاحقا. فعندما توجه أبو بكر راتب أفندي (1792) إلى فيينا ركز في رحلته السفارية على مسألتين أساسيتين هما الترتيب العسكري والنظام المالي في النمسا ووصفهما بدقة متناهية، ولا نشك في أن هذا الوصف الدقيق ساعد سلم الثالث (1789-1808) على وضع أسس "النظام الجديد" و"الإيراد الجديد" للدولة.

في هذا السياق، سياق تحول العلاقات بين الدولة العثمانية وأوروبا على مستويات عدة، توجه يكرمي سكز جلبي محمد أفندي إلى باريس بوصفه سفيرا وليس مبعوثا، وهو ما يدشن لسلوك ديبلوماسي جديد للدولة العثمانية اتجاه فرنسا.

بـدأ هذا الأمر في حديث بين إبراهيم باشـا -الصدر الأعظم العثماني- والسـفير الفرنسي في الأسـتانة المركيز دو بونـاك (Le Marquis de Bonnac) خلال اسـتقبال خص به هذا الأخير في إقامته على البوسـفور في 9 أكتوبر 1719 عندما أخبره أن الباب العالي عاقد العزم على إيفاد سـفارة إلى باريس. لم يصدق السفير الفرنسي الأمر في البداية واعتبره اندفاعا من قبل الصدر الأعظم ولم يكلف نفسـه عناء إخبـار دوق أورليان الـذي كان وصيا على العرش حـين كان لويس الخامس عشر دون سن الرشد.

لقد كان هذا الخبر يمثل في الحقيقة "ابتكارا ديبلوماسيا مهما"[1]، غير أن ترجمة وتفعيل هذا الوعد لم يكن بالسرعة المنتظرة، وبما أن السفير الفرنسي كان يستحضر الفشل الذريع للعديد من البعثات التي حلت بباريس، خاصة بعثة سليمان أغا إلى الملك لويس الرابع عشر، فقد أوصى بضرورة إيفاد سفارة

(1) Mehmed Efendi, *Le paradis des infidèles, Un ambassadeur ottoman en France sous la Régence*, p.23

يرأسها شخص إداري خبير متمرس. وعندما وصله خبر تعيين رئيس البوابين إينجي قره باشا (Ince Kara Paşa) في 11 فبراير 1720 تحفظ كثيرا، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن أعلن الديوان العثماني تعويض المبعوث المقترح بيكرمي سكز جلبي محمد أفندي.

* * *

السفير محمد أفندي

يعتبر محمد أفندي من رجالات الدولة الكبار. هو ابن سليمان أغا الذي كان يشغل وظيفة في البلاط العثماني، وظيفة مكنته من التقرب إلى السلطان، وكان سليمان عثمانيا غير أنه لم يكن من رعايا السلطان وكان من الموظفين الذين لا تفرض عليهم ضرائب في الدولة العثمانية، وكان له وضع اجتماعي خاص. وكان أمثال والده يتلقون تربية خاصة ولهم خبرة إدارية واسعة وتنبع قوتهم وسلطتهم من وضعهم الاجتماعي والاعتباري.

ولد محمد أفندي في إدرنه في تاريخ غير معلوم، وإن كان السفير الفرنسي يذكر أنه كان يبلغ من العمر عندما عين على رأس السفارة خمسين عاما وبهذا المعنى يكون محمد أفندي قد ولد حوالي سنة 1670. التحق بمدارس البلاط حيث يذكر السلطان في رسالة اعتماده أنه "ربي في بيتنا العامر"، ثم التحق بصفوف الإنكشارية بالفرقة الثامنة والعشرين. وتسلق المناصب العسكرية حتى بلغ رتبة بيك باشى (قائد الألف). وتقلد وظائف سامية، فقد شغل وظيفة ناظر الطوبخانه. وكان هذا الرجل، الذي كانت له خبرة في الأمور المالية والتقنية، شخصا متعلما، فقد تفرغ محمد أفندي للدراسة وغرف من العلوم الشرعية، وكان أيضا ناظما للشعر حيث نظم قصائد شعرية باسم مستعار وهو "فايزي".

لم يكن محمد أفندي الموظف والعسكري المتعلم فحسب بل اكتسب أيضا خبرة ديبلوماسية عندما عين وزيرا مفوضا ثانيا في البعثة التي قادت مفاوضات باساروفيتس (Pasarovitz) إذ شارك فيها كـ "شق ثالث دفتردارى"، وقد اكتسب

خبرة ديبلوماسية من خلال هذه التجربة ومكن -كما يقول (Bonnac) "من اكتساب سمعة طيبة عند الوزراء والأمراء المسيحيين الذين شاركوا في هذه المفاوضات". وقد تمكن على إثر هذه المفاوضات من الارتقاء إلى رتبة "رئيس المحاسبة" (باش محاسبه جي).

كانت شخصية محمد أفندي فريدة من نوعها فقد كان: ميالا إلى الانضباط، فلم يمانع في السفر إلى باريس أياما قليلة قبيل عيد الأضحى، ولم تجد السلطات الفرنسية أي مشكل برتوكولي معه سواء تعلق الأمر بقضاء الحجر الصحي أو الاستقبالات على عكس سفراء آخرين. واستطاع أن يتجاوز ما خلفته سفارات سليمان أغا من تداعيات على مستوى العلاقات الفرنسية العثمانية. لقد كان محمد أفندي كما يقول السفير الفرنسي في الاستانة "بوناك" "سلسا للغاية ولطيفا في سلوكه وتعابيره ... وكانت له رغبة في دعم سفارته بكل شرف".

غير أن النصوص الفرنسية لا تجمع على حسن سلوكه وصفاته الحميدة، بل أن بوناك الذي دافع عنه سفيرا كانت له مؤاخذات عليه:

فقد كان محمد أفندي بخيلا حسب هذه النصوص، وبدا ذلك في مناسبات عدة، أما المناسبة الأولى فهي لجوؤه، بواسطة واحد من أتباعه، إلى التظلم إلى البلاط الفرنسي من ضعف قيمة الماهية المخصصة له مقارنة بما خصص لسفير إيراني زمن الملك الراحل لويس الخامس عشر. أما المناسبة الثانية فتتمثل في قيامه في آخر مهمته بحرصه على إرسال كل ما تم توفيره إلى إستانبول. وأما المناسبة الثالثة فتتمثل في تعامله بشح مع طاقم السفينة التي أقلته أثناء عودته، إذ لم يحصل الطاقم، تقول النصوص الفرنسية، إلا على "قفة من الليمون وصحن خشبي يحتوي على دزينة من السمك من النوع الرديء".

كان محمد أفندي دقيق الملاحظة وديبلوماسيا محنكا وتبدو هذه الديبلوماسية الفائقة في سلوكه سواء مع النساء أم مع الملك ومختلف رجالات الدولة الفرنسية، فهو لم يرفض دعوة وجهت إليه وحتى وإن كان مجهدا.

وعلاوة على الخصال التي يتمتع بها كانت له شبكة من العلاقات التي أهلته ليتم اختياره سفيرا، فقد كانت تربطه علاقات وطيدة مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي تعرف عليه أثناء المفاوضات التي أفضت إلى توقيع معاهدة باساروفيتس، وكان محمد أفندي صديقا لأمير البحر آنذاك، فعندما عاد من سفره من باريس وجد في استقباله أمير البحر شخصيا. وهذه الشبكة لا تتوقف عند كبار رجالات الدولة المركزية بل تتجاوزها إلى علاقات مع الولاة، ففي طريق عودته من باريس توقف محمد أفندي في جزيرة Chios. وهو ما يبين أن السفير كان شخصية متشعبة العلاقات في جميع المستويات. هذه العلاقات اكتسبها من خلال مشواره المتنوع من عسكري في الفرقة الثامنة والعشرين إلى مفاوض أثناء مفاوضات صلح باساروفيتس، متمكنا من خبايا السياسة الأوروبية للدولة العثمانية، ثم إلى رئيس للمحاسبة ملم بجزئيات العمل البيروقراطي العثماني.

لا نقف في النصوص العثمانية ولا في السفارتنامه نفسها عن ظروف تحضير الرحلة. فقد أحيط تعيينه سفيرا إلى فرنسا بالسرية التامة ويعود السبب في ذلك إلى حساسية توجيه سفير مسلم إلى بلاد الكفر. ويبدو أيضا أن إيفاد السفارة تم باستعجال كبير، فقد انطلقت الرحلة أياما معدودة قبل عيد الأضحى، وهو ما لم يسمح للسفير بالقيام بالاستعدادات اللازمة التي تصاحب دوما مثل هذه الرحلات. ويبدو أيضا أن محمد أفندي لم يقم حتى بالاطلاع المباشر على كتب تتعلق بفرنسا ومن ثمة عول على ابنه في كل ما يتعلق بالمعلومات حول بلد وجهة السفارة.

لقد رافق محمد سعيد أباه في رحلته إلى فرنسا. وكان محمد سعيد واسع الاطلاع بحكم دراسته وانفتاحه على الغرب وصداقاته مع السفراء الأجانب المقيمين في إستانبول. ومن الكتابات التي اطلع عليها ابنه، ووجدت صداها في الرحلة، "أطلس مينور" الذي كان قد ترجمه كاتب جلبي إلى اللغة العثمانية، ولعل ما يؤكد هذا الصدى ما يورده السفير العثماني عندما وصل إلى شرانتوم (Charenton) :

"ويروي المرحوم كاتب جلبي في الترجمة التركية للأطلس الكبير قصة خارقة عن شرانتوم يقول إن في ضاحيتها مكان يتردد فيه الصوت 13 مرة. وقد استعلمت باهتمام عن هذا المكان ولكن لم أجد أحدا يعرف شيئا عن ذلك، وكل

الناس أجابوني بأنهم لم يسمعوا بشيء مماثل. بحيث أتيقن مما إذا كان قد وجد هذا المكان واندثر بمرور الزمن، وإلا لماذا أورد الأطلس خبره".[1]

ويبدو أيضا أن السفير اطلع، وبواسطة ابنه دائما، على بعض الوثائق المتعلقة بأوروبا بالإضافة إلى المعلومات التي تخزنها الدولة عن البلاد الأخرى والواردة من مختلف البلاد التي كانت تدين بالولاء للدولة العثمانية.

وبعد الاطلاع على هذه المعلومات توجه السفير العثماني مصحوبا بالصدر الأعظم ومفتي إستانبول لمقابلة السلطان. وقد خص السلطان العثماني محمد أفندي بخلعة وسلمه الرسائل الموجهة إلى الملك الفرنسي، كما تلقى السفير توجيهات شفوية وهذه التوجيهات هي ما أنارت سبيل السفير في تدوين رحلته إلى باريس.

كانت حاشية السفير العثماني تتكون من خمسين نفرا، وكان حريصا على أن يعاملوا في الديار الفرنسية بما يليق بوفد قادم من "العتبة العلية"، غير أن السفير لا يذكر من هؤلاء سوى الإمام الذي كان مفروضا أن يرافق كل السفراء العثمانيين إلى أوروبا، ورئيس المراسم الذي كان مكلفا بالهدايا التي حملها للمسؤولين الفرنسيين وابنه سعيد الذي كان موظفا في السفارة برتبة ديوان أفندي. وتمكننا نصوص أخرى من الوقوف على بعض المشاركين في الوفد العثماني[2]

لم تكن سفارة محمد أفندي لتمر كلها في شروط جيدة، لقد صادفت وضعية صعبة في فرنسا في مستويات عدة عند وصولها. فقد كانت السفارة تتطلب مصاريف كثيرة لم يكن بإمكان الخزينة الفرنسية توفيرها، خاصة وأن بعض بيروقراطيي فرنسا كانوا لا يرون ضرورة لاستقبال السفير العثماني، كما كانت الوصاية في فرنسا قد بلغت حدا من الحرج بحيث كانت تحصد الفشل تلوى الآخر، ولم تفلح مختلف التدابير التي اتخذتها في علاج الوضعية الاقتصادية الصعبة التي ورثتها عن الملك الراحل لويس الرابع عشر. ففي يوليو

---

(1) محمد جلبي، **جنة النساء والكافرين**، ترجمة خالد زيادة، القاهرة 2014، ص.76.

(2) تضع فاطمة موجي كوجيك ملحقا لدراستها وهو عبارة عن قائمة بأتباع السفير العثماني استلهمته من خلال الوثائق الفرنسية التي اعتمدتها ينظر:
Fatma Muge Gocek, *East Encounters West, France and the Ottoman Empire in the Eighteenth* Century, Oxford university Press,1987.

1720 اضطر البنك الملكي إلى تعليق الأجور، وبالإضافة إلى ذلك عانت مرسيليا من وباء مرعب حيث انتشر الطاعون في كل أرجاء المدينة وامتد ليشمل كل المنطقة الجنوبية لفرنسا.

ولم تكن الظرفية الصعبة تتوقف عند المشاكل والصعوبات التي عانت منها الوصاية وآثار الوباء، بل واجهت السفارة نوعا آخر من الضغوط تمثل في الدور الذي لعبه السفير الفرنسي السابق في القسطنطينية إلى سنة 1709 الكونت دو فريول (Le Conte de Ferriol)، فقد كان هذا السفير ذو الشخصية النافذة يعارض بشدة توجيه سفارة عثمانية، وكان يرى أن بديل ذلك يتم عن طريق توجيه فرنسا لسفارة فوق العادة إلى إستانبول يعهد إليه بقيادتها.

وهذه الشروط مجتمعة، بالإضافة إلى طول المدة التي يستغرقها تبادل المراسلات، كانت عوامل أساسية في تأخر السفير الفرنسي بوناك في إبلاغ الباب العالي بموقف فرنسا من إيفاد السفارة في 4 نوفمبر 1720، وعندما وصل التبليغ الفرنسي كانت سفارة محمد أفندي على أبواب الدخول إلى فرنسا، فقد وصل محمد أفندي إلى تولون في 22 نوفمبر 1720. وهذا ما وضع الفرنسيين في النهاية أمام الأمر الواقع وبالتالي سعوا إلى العمل على إنجاحها بما يسهم في الحفاظ على المصالح الفرنسية التجارية والدينية في الشرق.

استغرقت رحلة محمد أفندي سنة كاملة (من أكتوبر 1720 إلى أكتوبر 1721) وتتوزع كالتالي:

الرحلة من إزمير إلى تولون	46 يوما
الحجر الصحي	39 يوما
الرحلة عبر القنال	21 يوما
الرحلة البرية	22 يوما
الإقامة في باريس	148 يوما
رحلة العودة إلى سيت	24 يوما
الرحلة البحرية من سيت إلى إستانبول	31 يوما

وعندما عاد إلى إستانبول كتب رحلته السفارية التي كان لها تأثير على الفاعلين السياسيين، بل يمكن القول أن التقرير السفاري فتح الباب أمام المدنية الأوروبية. غير أن التيار التغريبي الذي فتحته الرحلة، وكان محمد أفندي أحد رموزه لقي مقاومة عنيفة في الأوساط العثمانية، فقد تم التخلص من الصدر الأعظم إبراهيم باشا وتم نفي محمد أفندي تحت لقب "والي" إلى قبرص. وبقي هنالك إلى أن توفي سنة 1732، وتواصلت حركة مقاومة التيار التغريبي إلى أن تم خلع السلطان أحمد الثالث.

* * *

أقسام الرحلة-السفارة

يتكون نص رحلة محمد أفندي السفارية من ثلاثة أقسام، يشمل الأول منها السفر إلى باريس، أما الثاني فيتعلق بوصف العاصمة، ويختص القسم الثالث بوصف طريق العودة من باريس إلى إستانبول [1].

خلال القسم الأول كانت الرحلة تجمع بين السفر في البحر والبر. فقد سافر من إستانبول إلى تولون بحرا. وبعد قضاء الحجر الصحي سافر عبر قناة لانغدوك (Languedoc) إلى بوردو، ومنها واصل برا إلى باريس. لقد كانت الرحلة البحرية إلى تولون مليئة بالأخطار منذ البداية، فبمحاذاة شاطئ لابيسكي كادت السفينة التي تقل السفير أن تنقلب لولا تدخل بعض البحارة الذين كانوا يبحرون بجانب سفينة السفير. كانت هذه الأخطار ناتجة بالأساس عن الأحوال المناخية إذ بدأت الرحلة في شهر أكتوبر الذي يوافق بداية الأمطار الخريفية. وأجبرت هذه الظروف سفينة السفير على التوقف لمدة طويلة إذ لم تبارح جزيرة مالطة إلا بعد قضاء أسبوع كامل بالجزيرة. ولم يتنفس السفير الصعداء إلا بعد وصوله تولون، غير أن الوباء الذي كان يعم جنوب فرنسا خلال هذه المرحلة وكياسته الديبلوماسية جعل السفير العثماني مرة أخرى أمام اللجوء إلى اختيار السفر بحرا:

(1) لا تتضمن الصيغة العربية سوى القسم الثاني.

"قلبت الوضع في ذهني ووجدت أنه إذا كانت الأمور على ما شرحوه لي فإنني سأسبب لنفسي التعب والإزعاج للفرنسيين إذا ما اخترت طريق البر فقررنا أن نسافر بحرا".

واصل السفير العثماني رحلته عبر قناة لانغدوك ويعتبر ذلك أول لقاء للسفير المسلم مع إحدى الإنجازات التقنية التي لعبت دورا كبيرا في تسهيل التواصل بين جهات فرنسا، وتساعد هذه القناة، كما يقول السفير، في تنشيط الحركة التجارية في بوردو التي قضى بها ثلاثة أيام قبل التوجه إلى بيلاي (Bellay). في خلال الطريق من بوردو إلى باريس يتعرض السفير بالوصف المقتضب لمدن بواتيه وتور وبلوا وأورليان، ولا يذكر السفير، أية مصاعب في السفر، فقد سهر الفرنسيون على ترتيب كل المراحل اللاحقة للرحلة.

كان القسم الثاني من الرحلة مخصصا لزيارة باريس ووصف معالمها. ولعل ما يثير الانتباه هو أن السفير العثماني عرض منذ البداية لوسائل المواصلات التي استعملها في التنقل بين مختلف الأمكنة التي زارها في باريس وضاحيتها، فقد عرض عليه البرتوكول الفرنسي أحصنة وعربات، يورد وصفا لها في البداية.

لم يترك ترتيب زيارة باريس للصدفة، فقد كانت الرحلة منظمة على الوجه الأكمل، وشملت زيارة مواقع داخل المدينة أولا ثم أعقبتها زيارة المواقع التي كانت تقع في ضواحي المدينة.

أما القسم الثالث فقد خصص للعودة إلى إستانبول عند انتهاء المهمة. فقد غادر السفير مدينة باريس يوم السبت 3 غشت 1721 واستغرق زمن الرحلة خمسة وخمسين يوما إذ لم يصل إلى إستانبول إلا في 8 أكتوبر 1721. لم يكن طريق العودة نفس طريق الوصول إلى باريس، فقد غادر باريس في اتجاه ليون ومونبلييه ومنها إلى سيت التي أبحر منها مارا عبر تونس ومالطة. وكان طريق العودة مناسبة للسفير لزيارة معالم أخرى وتقديم أوصاف للمواقع التي مر منها مثل مدينة ليون التي يرى أنها "أكثر المدن سكانا وأكبرها على الإطلاق، وهي مبنية بشكل متين وتعرف حركة تجارية كبيرة... وتستحق أن تشاهد كباريس الثانية".

* * *

مضمون نص السفارة

عندما نقرأ الرحلة نجد أن الخيط الناظم هو توصيف مشاهدة الغريب بقلم يمزج بين الانبهار بمنجزات فرنسا في مختلف الميادين والحسرة على الواقع الذي آلت إليه الدولة العثمانية والدعوة المبطنة إلى اعتماد التجارب الفرنسية في الدولة العثمانية. فماهي مظاهر الانبهار والإعجاب في الرحلة؟

1- الجانب السياسي

لعل أهم جانب سياسي في الرحلة هو مصادفة الرحلة لوضعية انتقال الـمُلك في فرنسا. فقد توفي الملك لويس الرابع عشر في 1 شتنبر 1715 وتولى لويس الخامس عشر الحكم وكان يبلغ من العمر زمن وصول السفير العثماني أحدى عشر سنة. ويقضي النظام الفرنسي أن يعهد بالحكم إلى وصي يشرف على تسيير البلاد إلى أن يبلغ الملك سن الرشد. وبهذا يكون محمد أفندي زار باريس زمن الوصاية. وقد وصف السفير العثماني بإعجاب مضمر هذه التجربة، ولم يكن له أن يعود لمرات لوصف الملك لولا استحضاره الضمني لواقع انتقال السلطة في الدولة العثمانية والبلاد الإسلامية، الذي كان يتميز بالعسر والتوجس من الاضطرابات والأزمات.

ويتوقف السفير العثماني عند الوصي (le régent) ويحاول أن يبحث له عن مقابل في النظام العثماني، عندما يشبهه بـ "لاله"، غير أن لاله لم تكن له كل الصلاحيات التي كانت للوصي في النظام الفرنسي، فقد كان هذا الأخير يمتلك السيادة المطلقة، وقد بدا ذلك في استقبال الملك للسفير حيث كانت كل الاستقبالات تتم بحضور الوصي وبتوجيه منه، بل كان الوصي هو من يتكلم مكان الملك.

لقد وصف محمد أفندي الملك الفرنسي في حالات كثيرة:

أولا- عند استقباله له استقبالا رسميا في أول مرة وكان محاطا بحاشيته وبحضور الوصي على العرش الذي كان ينوب عن الملك في مخاطبة السفير. يصف محمد

أفندي بدقة متناهية القاعة التي استقبل فيها كما توقف عند جمال ولباس الملك[1]، فقد "فاق في حسن الوصف والجمال ومع هذا ثوبه المثقل والمكلل بالذهب والحجارة الفاخرة من الألماس وغيرها كان يمتد نورا ساطعا في الديوان خانه ما يكل عنه الوصف والظرف في كل جهة، وما كان أحد يقدر أن يملك النظر من جميع جوانبه". ونعتقد أن هذه الوضعية هي التي جعلت السفير يرتبك - كما تورد مصادر فرنسية - ولم يستطع أن يلقي كلمته على النحو الذي أورده في الوصف. وهي المناسبة التي استغلها السفير لكتابة وصف عن العلاقة التي كانت تربط الوصي بالملك. فالوصي هو الذي يتكلم نيابة عن الملك، وهو الذي أبلغ كلمات ديبلوماسية للسفير. وما استرعى انتباه السفير هو النظرة الغرائبية للملك، فقد كان ينظر بغرابة للباس السفير. وهو ما يظهر أن رحلة محمد أفندي هي مجال للاكتشاف والإعجاب المتبادل.

ثانيا- عند دعوة السفير إلى الصيد، فقد وجه الملك الفرنسي دعوة للسفير للخروج معه للصيد، حيث قضى السفير على حد تعبيره يوما "ملوكيا".

ثالثا- عندما كان الملك يقيم استعراضا عسكريا فدعا السفير إليه، وهناك كان أكثر قربا للملك، فقد كان يسير وراءه إلى جانب الوصي. وجلس بجانبه عندما بدأ الاستعراض، وقد جاوزت مدة الجلوس ساعة. هذه الوضعية لم تكن لتخطر ببال السفير العثماني ولذلك استفاض الحديث فيها. إنها الوضعية التي لم تكن لتتاح لأي سفير في إستانبول حيث كان برتوكول استقبال السفراء الأجانب في البلاط العثماني معقدا جدا لا يسمح للمبعوثين مهما كانت درجة علاقات بلدانهم

---

(1) تأثر وصف ملوك البلدان الأوروبية في الرحلات والسفارتنامه العثمانية بواقع العلاقات التي تربط بين السلاطين المسلمين وهذه البلدان، ولنا أن نقارن بين ما يورده محمد قره باشا واصفا الإمبراطور النمساوي، وواصف أفندي عن الملك الاسباني كارلوس الثالث، وما يورده محمد أفندي عن لويس الخامس عشر.

ينظر، عبدالرحيم بنحادة، "سفيران مسلمان في مدريد في نهاية القرن الثامن عشر"، في **السفر العالم المتوسطي**، تنسيق عبدالرحمن المودن وعبدالرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2004.
Lewis, *comment*...p.106

بالدولة العثمانية لتسمح لهم بالاقتراب من السلطان العثماني، وهو ما يشهد عليه الكثير من التقارير السفارية أوربية كانت أم إسلامية[1].

رابعا - عندما زار السفير الوصي وتناول معه الغداء دخل على الملك، فوجده في خاصته، ومرة أخرى يسترسل محمد أفندي في الحديث عن الملك ووصفه. "لقد كان عمره أحد عشرة سنة... ولكن قدره مناسب وأعضاؤه متساوية وخصوصا شعر رأسه كان في الغاية والنهاية". بيد أن ما أثار انتباه السفير هو سؤال الوصي عن رأي السفير في جمال الملك وحسنه ودعوته للامساك برأسه ولمس شعره. ودعوته للملك بأن يسير أمام السفير ويجري ليظهر لهم خفة الملك.

ومن بين الأمور الأخرى التي تخص الملك، يلاحظ أن السفير العثماني كان دقيقا في اختيار الكلمات واستعمال المصطلحات، وهو ما لا يمكن تتبعه في النص العربي. فقد استعمل السفير لقب "قرل" عند الحديث عن الملك الفرنسي لويس الخامس عشر في كل مرة تم فيها ذكره، غير أنه آثر استعمال لقب "بادشاه" "ملك الملوك"[2] عند مخاطبته له أثناء الاستقبال الرسمي. لقد خرق محمد أفندي قاعدة التعامل مع ملوك البلدان الأجنبية على مستوى الألقاب، بيد أن كياسة السفير وخبرته الديبلوماسية وشعوره بما يمكن أن يحدثه استعمال غير هذا اللقب من اشمئزاز في الأوساط السياسية الفرنسية هي التي كانت وراء خرق قواعد المخاطبة.

توقف محمد أفندي عند النظام السياسي الفرنسي مطولا ولعل من بين الظواهر التي استأثرت بانتباهه علاقات القرابة بين مختلف الفاعلين السياسيين في الدولة. فالدوق دوبوربون كانت تربطه علاقات أسريه مع الوصي، كما أن الكونت

(1) يراجع في هذا الباب، وعلى سبيل المثال، تلك التقارير التي أنجزها السفراء البنادقة في إستانبول والتي ركزت على سلوك السلاطين العثمانيين في القرن السادس عشر، وأوصاف السفيرين المغربيين أبو القاسم الزياني ومحمد بن عثمان المكناسي في القرن الثامن عشر.

Valensi (Lucette), *Venise et la Sublime Porte : La naissance du despote*, Pluriel –Paris 2005

بن عثمان المكناسي (محمد)، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر النبي الحبيب**، تحقيق محمد بوكبوط، دار السويدي، 2003؛ الزياني (أبو القاسم)، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، الرباط 1991.

(2) وهو لقب كان حكرا على سلاطين الدولة العثمانية إلى معاهدة كوجك تينارجه الموقعة سنة 1774.

دوتولوز كان الابن غير الشرعي للملك لويس الرابع عشر. وقد لاحظ السفير أنه كان يحظى بتقدير كبير من الملك لويس الخامس عشر. وهذه السمعة التي حظي بها دو تولوز لا تضاهيها سوى المكانة التي كانت لابن آخر غير شرعي للملك وهو الماريشال الدوق في بوردو الذي "لم يأت لزيارة السفير لأنه كان ابن الملك".

وداخل هذا النظام السياسي يلاحظ السفير أن الفرنسيين كان لهم عدد كبير من الوزراء وكان بعضهم أعلى مرتبة من الماريشال والدوق، وكان معجبا أيضا بتوزيع المهام بين هؤلاء الوزراء، هو أيضا نوع من الإعجاب غير أنه طريقة أخرى لانتقاد وضع الدولة العثمانية في هذا المجال حيث تتركز كل السلطات بين يدي الصدر الأعظم أو السلطان حسب موازين القوى. وقد عمل السفير على وصف مهام وزير الخارجية فقط: فقد "كان أرشفيك دو كامبري وزيرا للخارجية وكان دوره ينحصر في فحص إمكانيات توقيع اتفاقيات السلم والسهر على شؤون التجارة والتفاوض مع سفراء الأمراء الأجانب وتسمية السفراء الذين يمثلون فرنسا في الدولة العثمانية". ويسجل محمد أفندي أن هذا الوزير كان يحظى بتقدير الوصي.

لقد كان وصف الأجهزة الحكومية في البلدان الأوربية عند السفراء المسلمين منذ القرن السابع عشر على درجة كبيرة من الأهمية، بحكم أنه يسمح لهم بفهم النظام السياسي الأوروبي من جهة، ومن جهة ثانية كان الاهتمام بهذه الأجهزة يعتبر بمثابة دعوة لاعتماد النموذج الأوروبي في تدبير الشأن العام لما في ذلك من فائدة تجاوز المركزية الشديدة المعتمدة في الأنظمة التقليدية، غير أن هذه الدعوة لم تجد الآذان الصاغية إلا في القرن التاسع عشر.

ومن الجوانب السياسية التي تركز عليها الرحلات السفارية عموما تبادل الهدايا. فقد عكست الهدايا المتبادلة طبيعة العلاقات ودرجة قوتها، وقيمة الهدايا تحددها أيضا تقدير المجتمعين. ويلقي وصف هذه الهدايا أضواء على الوضع الاقتصادي والمنتوجات المحلية كما يعكس التطور الصناعي للمجتمعين أيضا.

إن الهدايا التي تبادلها محمد أفندي مع الملك لويس الخامس عشر والسلطات الفرنسية يمكن معالجتها من هذه الزاوية. لقد حمل السفير العثماني هدية تعكس تمثل العثمانيين للحياة، ومحتويات الهدية ترتبط أكثر بالصيد أو الحرب. كما أنها تعكس درجة الغنى خاصة وأن كل الهدايا كانت مرصعة باليواقيت وعبارة عن ألبسة من الحرير الخالص. وبشكل عام كانت الهدايا التي حملها السفراء العثمانيون إلى أوروبا تهدف إلى إبراز عظمة الملك العثماني. أما الهدايا الأوربية فلم تكن تكتسي معنى ماديا بقدر ما كانت تترجم الثقافة الأوربية ومستوى الإبداع العلمي والتكنولوجي الذي بلغته أوربا. فقد كانت الهدايا التي قدمت لمحمد أفندي عبارة عن مرايا وساعات ومنظار بالإضافة إلى بعض الأثاث حيث قدم الفرنسيون منضدات وغيرها من المواد التي تعكس درجة الرقي الحضاري الفرنسي.

عند مغادرة السفير أحضر المدخل هدايا إلى السفير العثماني، ولما كان العثمانيون يشترطون الحصول على هدايا من نوع خاص تراعي شعورهم الديني، فقد استجاب الفرنسيون لهذا الشرط عندما قدموا للسفير "حزاما مرصعا بالألماس وسجادتين مصنوعتين في باريس ومرآة وبندقية وزوج من المسدسات وعلبتين مصفحتين بالنحاس المذهب أيضا وإناءين من البورسلين لوضع المثلجات وعلبة سكاكر" عوضا عن "الصورة المرصعة بالألماس" التي دأبوا على تقديمها كهدايا لمبعوثي البلدان الأجنبية في فرنسا.

2- الجانب المادي والاجتماعي

يتوقف السفير العثماني منذ الصفحات الأولى عند الكارثة التي حلت بفرنسا والمتمثلة في استشراء وباء الطاعون حيث يقدم بعض الاحصائيات المتعلقة بما نجم عن هذا الطاعون من خسائر ديموغرافية جمة حيث قدرها في مدينة مرسيليا بسبعة آلاف ضحية، وهو رقم لم يكن مبالغا فيه على الإطلاق. وقد عرض المؤلف لكيفية الاحتراز من الطاعون ولعله في هذا الباب يدخل مسألة

الحجر الصحي. فقد مارس السفير نوعا من الإقناع الذاتي بضرورة قضاء هذا الحجر الصحي كإجراء احترازي.

إن وقوف السفير العثماني عند مسألة استشراء وباء الطاعون وكيفية الاحتراز منه يستحضر فيه تعامل المسلمين مع الأوبئة والطواعين. ففيما كان المسلمون يحرمون الفرار من الطاعون والوباء، سن الأوربيون نظاما عرف بالكرنطينة أو النزارته ويقضي هذا النظام بعدم دخول الأجنبي من الأرض الموبوءة إلا بعد مرور 30 أو 40 يوما بغض النظر عن جنسية الوافد أو دينه أو حتى مكانته الاجتماعية ووضعه الاعتباري. وقد اختلفت ردود فعل المسلمين الذين زاروا أوروبا بين مرحب ومتفهم ورافض[1]. ونعتقد أن تعامل المسلمين مع تطبيق هذا النظام يعكس درجة تمثل الأفراد المسلمين للثقافة الغربية.

يعتبر الحجر الصحي الذي شرعت أوروبا في اعتماده منذ القرن الثالث عشر واحدا من مؤشرات الاختلاف بين المسلمين وأوروبا، ففي الوقت الذي اعتبر فيه الأوربيون الحجر أداة للوقاية وحفظ النفس، كان المسلمون يعتبرون الوباء قدرا إلهيا. وقد سجل الرحالة والديبلوماسيون الأوربيون المقيمون في الدولة العثمانية هذا الوضع بكثير من الاندهاش ولعل أحسن مثال على ذلك ما يورده دوسون من أن هذا التعامل مع الوباء يعتبر قمة الإيمان بالقدرية[2]

لم يعلق السفير العثماني كثيرا على فترة قضاء الحجر الصحي بل استساغها بسهولة غير معتادة عند سفراء مسلمين آخرين الذين اعتبروا الالتزام بها إهانة للسفير وتنقيصا من مكانة الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي نجده عند السفير العثماني واصف أفندي إلى مدريد. ويعود قبول محمد أفندي بذلك إلى خبرته في السفر إلى أوروبا وتعوذه على ذلك، فقد سبقت الإشارة إلى أنه شارك في الوفد العثماني المفاوض في باساروفيتس.

---

(1) أبرزنا هذا الاختلاف في دراسة سابقة، ينظر:

عبدالرحيم بنحادة، "سفيران مسلمان في مدريد"، ضمن **السفر في العالم الإسلامي: التواصل والحداثة**، تنسيق عبدالرحمن المودن وعبدالرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2004.

(2) D'Hosson (Mouradgea), *Tableau général de l'empire Othoman*, Imprimerie de Monsieur, Paris, 1787 p. 391

أما الجانب الثاني الذي استأثر بانتباه محمد أفندي فهو الحشود الغفيرة من الناس التي كانت تأتي لاستقبال السفير منذ أن حط الرحال بطولون (Toulon)، وقد عبر عن هذه الحشود تارة بالأرقام وتارة باستعمال عبارات من قبيل "جم غفير" و"عدد كبير"، ويمزج هذه الأعداد من الناس، التي كانت تستقبله في كل المدن التي حل بها، بذكر حوادث طريفة مثلما هو الأمر عندما ذكر التدافع الذي حصل وأدى إلى سقوط بعض الأشخاص في نهر من الأنهار. فوفرة المستقبلين والإطناب فيها تعكس الرغبة المتبادلة في اكتشاف الآخر، اكتشاف ما هو غريب وعجيب عند الزائر.

لقد كان الأوربيون، وليس فقط في فرنسا، منشغلين بتمايز الأتراك في اللباس والعادات، وهو أمر ناتج عن فرق سجله العديد من الباحثين بين أوروبا والدولة العثمانية، ففيما كان الأوربيون ميالون إلى التنميط كان العثمانيون يتميزون بالتعدد بحكم شساعة المجال العثماني، واختلاف الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية وتنوعها. ومن ثمة كان الأوربيون على هذا المستوى أكثر انبهارا بالشرق، وكان هذا الانبهار محل تنويه من قبل كل السفراء المسلمين الذين زاروا أوروبا. فقد سجل عزمي أفندي السفير العثماني إلى برلين كيف أنه اضطر في كثير من الأحيان إلى عدم زيارة بعض المدن بسبب ازدحام الطرق بالراغبين في اكتشاف الشرق من خلاله[1].

لم يكن الأمر يتعلق بالحشود التي تستقبل السفير، بل بإصرار نخب فرنسا على القيام بزيارته في مقر إقامته، وهو أمر أكده السفير غير ما مرة. ويبدو أن من كان يرغب بالأساس من الناس في مشاهدة أعضاء السفارة ومقابلتهم، النساء. وهي مناسبة سمحت للسفير بالوقوف عند الحضور المكثف للنساء في المجتمع الفرنسي.

فقد أبدى إعجابه في مستويات متعددة:

المستوى الأول، ويتمثل في أسبقية المرأة في مناسبات الاستقبال نظرا لحظوتها على حساب الرجل فـ " إكرام النساء سابق على إكرام الرجال". ولم

---

(1) عزمي أفندي، **سفارتنامه**، ص 42- 43.

تكن هذه الملاحظة لتسترعي انتباه السفير العثماني لوحده، بل شاركه فيها كل المسلمين الذين زاروا أوروبا بدءا من الغساني سفير السلطان مولاي إسماعيل المغربي إلى كارلوس الثاني سنة 1691 ومرورا بأوليا جلبي الذي يقول: "عندما يصادف الملك امرأة في الطريق إذا كان راكبا حصانه فإنه يوقف حصانه ويترك المرأة تمر. وإذا كان راجلا فإنه يتوقف ويضع يده على صدره، وعندما تحييه المرأة فإنه يرد عليها احتراما بإزالة شبكته." وانتهاء بسفراء نهاية القرن الثامن عشر من أمثال السيد علي مورالي وعبدالرحيم محب أفندي وسفراء المسلمين في القرن التاسع عشر.

المستوى الثاني، ويتمثل في حرية تصرفها، فهي "تعمل ما تشاء ويختار خاطرها وتمضي إلى حيث تشتهي وتريد". لقد استوقف هذا الوضع محمد أفندي أكثر من مرة سواء في باريس أو في المدن التي توقف بها، وخلص إلى نتيجة وهي أن الولاية والحكم في هذا البلد هو للنساء.

المستوى الثالث، ويتجلى في مشاركة المرأة في الحياة العامة ويُبرز هذه المشاركة في الحياة العمومية عندما كان بصدد المقارنة بين إستانبول وباريس من حيث اكتظاظ الشوارع. ويرى أن هذا الاكتظاظ ناجم بالأساس عن الحضور القوي للمرأة التي لا تمكث ببيتها وتقضى اليوم كله في التنقل من بيت إلى بيت. وهي ملاحظة سجلها قبله أوليا جلبي.

عندما كان السفير يتحدث عن نساء فرنسا لم يكن يخفي إعجابه بجمالهن ويجاهر في الكثير من الأحيان بهذا الإعجاب. ويبرز أن هذا الإعجاب كان متبادلا، فأكثر من كان يفد عليه للزيارة النساء. وعندما سئل ذات مرة عن عدم اصطحابه إحدى زوجاته معه إلى فرنسا، يجيب قائلا: "هناك سببان حالا دون ذلك، الأول ويتعلق بطول السفر وكان من الممكن أن تتعبن من جراء السفر بحرا، أما السبب الثاني فهو أنني كنت متأكدا من أنني سأجد في فرنسا أجمل وأظرف ممن كنت سأصطحب معي من القسطنطينية." وفي مناسبة أخرى وعندما سألته إحدى

السيدات الجالسة إلى جانبه عن انطباعاته عن موضوع الأوبرا التي تابعها، أجاب قائلا:" لقد انشغلت بجمالهن إلى درجة أنني لم أتابع موضوع الأوبرا".[1]

لم تكن الحياة الاجتماعية هي التي استرعت باهتمام السفير، بل انشغل بالبنيات المادية فوقف مطولا عند الجهود التي بذلتها فرنسا في سبيل تنظيم الطرق والأسواق والتجارة بشكل عام. فعندما غادر تولون (Toulon) يقف عند قناة لونك دوك الذي يعرف بقنال الميدي فيورد أنه قبل إنجاز هذه القناة كان التجار يعانون من هول السفر في البحر، ويبرز أن الدولة استثمرت في بناء هذه القناة وصرفت عليها أموالا طائلة، فعاد بناؤها بالنفع على التجارة الداخلية؛ فمن جهة تم تقليص زمن العبور ومن جهة ثانية كثر الإقبال عليها من قبل التجار وهو ما مكن الدولة من الحصول على "أموال ميرية هائلة". لقد مكنت هذه القناة - يقول محمد أفندي - من الربط بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي دون السفر لا برا ولا بحرا.

إن الوقوف مطولا عند وصف القناة يستند بالأساس على وضعية الطرق في البلاد العثمانية ويتأسس على تطلع السفير إلى تكريس جهود الدولة العثمانية إلى الاعتناء بالبنيات التحتية في أفق تطوير التجارة ومن ثمة الرفع من الموارد المالية للباب العالي. في هذا الإطار يقف السفير العثماني عند الجسور العالية والقناطر التي تسهل حركة البشر والسلع، ويخلص كما في السابق إلى أن مثل هذه الأعمال يعد من عجائب الدنيا ولا يمكن أن يتم إلا بجهود جبارة.

ولعل من أهم الفقرات في وصف البنيات المادية في فرنسا تلك التي يتحدث فيها السفير عن مدينة تولوز التي كانت تعاني أطرافها من الخراب. ويربط السفير العثماني بين الخراب والتجارة ويعزو ذلك إلى أن المدينة "غير مقصودة للتجارة". وواضح من ذلك أن الرسالة التي كان يريد تمريرها هي ضرورة العناية بالبنيات التحتية في البلاد العثمانية في أفق تطوير التجارة التي يستقيم معها العمران والاستقرار وتمكن الدولة من الحصول على "أموال ميرية".

(1) Buvat, "Extrait du Journal de la Régence", in Mehmed Efendi, *Le Paradis des infideles*... p. 212

لم تكن التجارة الجانب المادي الذي استأثر بانتباه السفير بل عني بعمران المدن التي حل بها. لقد جاء محمد أفندي من مدينة إستانبول وهي المدينة العالمية الممتدة على مساحات واسعة والمشكلة من أحياء قديمة ورثت أصناف معمارية مختلفة تتراوح بين البيزنطي والإيراني والعربي. وقد بلغت إستانبول في القرن الثامن عشر أوجها المعماري وبدأت تنفتح على النماذج الغربية وهو ما يظهر في المنشئات التي أنجزت خلال هذه المرحلة. هذا التنوع والغنى هو ما جعل أوصاف المدن التي حل بها تتأثر إلى حد كبير بالصورة المختزنة في ذاكرة السفير العثماني.

عندما وصف محمد أفندي باريس يشير إلى كثرة البنايات ويقول:" وقد توجد في ذات باريس بنايات كثيرة لا تكاد تحصى حتى أنه غير ممكن وصفها بذواتها على تفاصيلها وألوانها". ومرة أخرى تحضر المقارنة بين باريس وإستانبول، فيقول:

"وحاصل الأمر أنني رأيت مدينة باريس في السعة والبناء أكبر من مدينة القسطنطينية، ومن قال إنها من دونها فقد كذب لأنني عاينت أكثر البيوت، فمنهم من بناية في علو يشتمل على سبع طبقات ومنهم ما هو مشتمل على خمس طبقات وعلى أربعة وثلاث طبقات. وفيها من الأمم والخلق ما قد شرحناه. وما رأيت مكانا خاليا من الناس ولا من السكنى في الدور والخانات والدكاكين والأسواق مع أني شاهدت في الازدحام في أسواقهم مع رجالهم وصبيانهم وغلمانهم شيئا مبالغا فيه".

ينطوي هذا القول على اعتراف بكبر حجم المدينة، وهو ما يتناقض مع ما يرد في النصين العثماني والفرنسي حيث يقول النص الفرنسي:

"ليست باريس في الحقيقة أكبر من القسطنطينية وإن كانت بيوتها مبنية على ثلاث إلى أربع طوابق وأكثرها على سبعة، وكل طابق تقيم به أسرة بكاملها، وترى أعدادا هائلة من الناس في الأزقة لأن النساء لا يمكنهن المكوث في بيوتهن ويقضين الوقت كله في التنقل من بيت إلى بيت، وهذا الخليط

(الاختلاط) بين الرجال والنساء في الأزقة هو ما يعطي الانطباع أن المدينة مأهولة وهي ليست كذلك"[1].

يستقيم النص الفرنسي مع ما تورده الدراسات الديموغرافية المتعلقة بالمدينتين، فقد حدد فرناند بروديل (Fernand Braudel)[2] عدد سكان باريس في بداية القرن الثامن عشر بأربعمائة ألف نسمة، فيما بلغ عدد سكان مدينة إستانبول في نفس المرحلة حسب خليل إنالجيك (Halil Inalcik) ما بين 700 و800 ألف نسمة[3].

لم تكن المقارنة تشمل الجانب الديموغرافي فحسب بل شملت الجانب الطبيعي، فنهر السين في باريس عند صاحب الرحلة هو بمثابة مضيق البوسفور في إستانبول، غير أن هناك جانبا يؤكد عليه محمد أفندي وهو أن الجزائر الثلاثة المشكلة لمدينة باريس مرتبطة فيما بينها بالجسور والقناطر التي تجعل الحركة داخل المدينة سهلة يسيرة، وهذه الجسور يقول محمد أفندي هي "في غاية البناء والإتقان".

وعلى عادته في المقارنات المبطنة يصف البيوت "المبنية بالحجارة المنحوتة ويجعلون الأساس عميقا بحيث إذا كان علوا فوقه لا يميل بناؤه". إن مثل هذا الوصف يستحضر البنايات الخشبية للقسطنطينية وعلو بيوتها ويستحضر أيضا ما كان ينجم عن نوعية البناء من الحرائق المتعددة التي كانت تهدد بنايات إستانبول.

3- الجانب الثقافي

كانت الثقافة جانبا أساسيا استرعى باهتمام الرحالة/السفير وشرع في توصيف معالمه بدقة، وعكس هذا الاهتمام من جهة أولى الإعجاب والانبهار بالحياة الثقافية والعلمية في باريس، ومن جهة ثانية التعارض الموجود بين ثقافة

(1) Mehmed Efendi, *op.cit*,135.

(2) Braudel (Fernand), *Civilisation matérielle, économie et capitalisme*, p.507

(3) Inalcik (Halil), Istanbul, in *Encyclopedia of Islam*, t.IV, p.224 - 248.

السفير والثقافة الغربية. ويمكن أن نميز هنا بين جانبين، الجانب الأول ويتعلق بالمتاحف والقصور والجانب الثاني فيتعلق بالمنشئات الثقافية التي حضر بها فعاليات ثقافية.

أ- القصور والمتاحف

لم يعتن محمد أفندي بالقصور في المدن التي زارها مثل بوردو وسيت وغيرها بالرغم من احتوائها على قصور تاريخية، إلا أنه عندما حل بباريس زار معظم وأشهر القصور بها، فقد زار سان كلو وفرساي ومدون. وهناك العديد من القواسم المشتركة في وصف هذه القصور. فقد انشغل ببساتينها وحدائقها ونافوراتها وشلالاتها وقنواتها وتماثيلها.

كانت الزيارة الأولى لقصور باريس عندما دعي السفير لزيارة قصر سان كلو، الذي كان قد اقتناه الملك لويس الرابع عشر سنة 1658. ويذكر السفير أن القصر كانت تسكنه أم الوصي على العرش. وعلاوة على شكل البناء يتوقف عند جدران مختلف الغرف التي زارها التي كانت مكسوة "بأنواع الثياب المقصبة الخالصة ومزينة بالألوان المتحفة والتفاريق والغرايب والعجايب". بيد ان أهم ما يستوقف السفير أثناء زيارته سان كلو هو حديقتها الواسعة التي يقيس مسافاتها بالساعات والتي يوجد بها حوض ماء به فوارة لا يوجد مثلها في كل بلاد فرنسا.

أما قصر مدون فهو في نظر السفير العثماني "لا شبيه له ولا نظير في الدنيا"، فقد شبهه السفير بجنة الأرض، "لو كانت في الدنيا جنة لقلت إن هذه هي الجنة".

وفي قصر فرســاي، يقف الســفير العثماني عاجزا عن الوصف، يقول:

"فالصراية المذكورة هي بغاية الوصف والجمال وبناؤها عجيب من أعجب شيء في الدنيا، وهي تشرح الصدر من كل جانب وتدفع الهموم وتزيل الغموم، وإني لقصير اللسان ومعتذر البيان في أوصافها الجميلة وأنواعها البديعة

ولا القيل عنها لأنها أعجب شيء يوجد في العالم وكل إنسان يصفها بأي نوع كان فهو كاذب لأن شرح وصفها لا يمكن إطلاقا".

ومع ذلك يحاول السفير العثماني تقديم بعض المعطيات التي تبين إعجابه بهذه المعلمة، وينشغل السفير بتكميم معطياته حيث يورد أرقاما عن عدد النافورات والأعمدة وعدد مجاذيف القوارب التي كانت تعبر القنوات.

أما في تريانون، الذي بناه لويس الرابع عشر سنة 1687 - 1688 فيتوقف السفير العثماني عند خصوصية هذا القصر من حيث البناء وشكل حديقته والنوافير وأحواض الماء. وكان السفير قد وصل إلى هذا القصر بواسطة قارب.

ب- المنشئات الثقافية

ويأتي على رأس هذه المنشئات الثقافية دار الأوبرا التي وجهت له الدعوة لزيارتها من قبل الوصي. وقد لبى الدعوة دون تردد من أجل الاطلاع بشكل دقيق على الحياة في باريس. ولعل الملاحظة الأولى التي سجلها هي الاختلاط بين كل فئات المجتمع عند متابعة فعالية من فعالياتها من الملك إلى عامة الناس.

إن حضور محمد أفندي حفلا من حفلات الأوبرا كان في الحقيقة خارج التجربة الثقافية العثمانية، وهذا النوع من الحفلات يدخل عنده ضمن أنشطة المحيط الخاص ويتمثل في حفلات الزفاف والعقيقة والختان وما إلى ذلك من الحفلات الخاصة. في حين أن ما تابعه في الأوبرا يدخل ضمن المجال العمومي. في الدولة العثمانية وفي البلاد الإسلامية لا تتحول الاحتفالات الخاصة إلى عمومية إلا في بعض الحالات المحصورة جدا من قبيل حفل عقيقة وختان أبناء السلاطين، وإن كان القرن الثامن عشر في الدولة العثمانية عرف بعض الخروج عن مثل هذه العوائد عندما أمر السلطان أحمد الثالث بالاحتفال بيوم الزنبق، غير أن هذه الاحتفالات لا يمكن أن تشبه بسهرة الأوبرا التي دعي لها السفير العثماني.

عندما كان محمد أفندي يصف ما حضره في الأوبرا، لا يشعر القارئ معه بتلك المقارنات الظاهرة والمبطنة التي عودنا عليها أثناء قراءة أوصاف أخرى،

بل يمكن القول إن السفير العثماني كان غريبا على التجربة الثقافية وتحول في وصفه هذه المرة إلى مجرد ملاحظ ويسعى إلى تقليد ما يقوم به مرافقوه. لقد اعتبر الأوبرا منتجا ثقافيا فرنسيا صرفا ولا صلة له بالتجربة الثقافية العثمانية، ففي الأوبرا -يقول محمد أفندي- يعرضون فنونا غريبة "حتى أن الذي يرى هذه الأشياء لا يظنها إلا حقيقة ولا يصدق السامع بهذه الأشياء ما لم يرها لأنها أشياء غير مصدقة بالنقل فرأيت في هذه الأوبرا شيئا عجيبا وليس الخبر كالعيان".

لا يكتفي محمد أفندي بالحديث عن الحفل الذي احتضنته الأوبرا، بل اعتنى أيضا بالمؤسسة فوصف معمار البناية وأثاثها فأعمدتها وسقوفها المذهبة والكراسي المغشاة بالمخمل الأحمر المخصوصة بالملك وحاشيته. كما أشار إلى طريقة تدبيرها حيث جعلت عليها الدولة قيما وخصصت له أموال من الميري لتنشيطها والعناية بها. ويفيض السفير العثماني الحديث عن مرتادي الأوبرا من كل الفئات الاجتماعية لا تميزهم سوى المقاعد والكراسي التي خصصت لهم. وكان وصف الأوبرا مناسبة لمحمد أفندي للعودة إلى الحديث عن النساء اللائي كن يملأن جنبات الأوبرا بلباسهن الفاخر.

وقد قدم السفير يكرمي سكز جلبي وصفا ضافيا لمجريات الحفل الذي حضره وهو عرض لأوبرا (Tragédie lyrique) التي عرضت لأول مرة سنة 1675.

في اليوم الموالي من زيارته للأوبرا دعي السفير لحفلة ترفيهية أخرى أقيمت في قصر الملك وبحضوره. واستجاب للدعوة رغبة منه في "متابعة هذه المتفرجات التي لا تصير" عند العثمانيين والمسلمين بشكل عام. وكانت مناسبة له للمقارنة بين الأوبرا والمكان الذي أقيمت فيه هذه الحفلة وقد سجل أن الديوانخانة المعدة لمثل هذه الحفلات في القصر الملكي توجد بالقرب من ديوانخانه الملك، "وهي واسعة ومكلفة أكثر من الأولى -يقصد الأوبرا- فحيطانها من المرمر الملون كله مذهب ومزين بالتصاوير العجيبة، والكراسي فيه أربعة صفوف حتى إلى السقف الواحد فوق الآخر، وكل صف أعلى من الصف الأول... وكل شيء في هذه الديوانخانه جميل يشرح صدر الناظر إليه".

ما يميز وصف هذا النشاط الترفيهي هو حضور السفير ضمن صفوة الملك، فقد كان محمد أفندي يجلس إلى جانب بنت عم الملك والتي دار حديث معها تسكت عنه الترجمة العربية والنص العثماني[1]. ويردف السفير -في الصيغة الفرنسية أن ما يميز حفلة الرقص هذه أنها كانت خاصة بامتياز ذلك أن الراقصين كلهم من أبناء الأمراء وكبار العسكريين والنبلاء[2].

خلال هذا الحفل الراقص انتبه محمد أفندي إلى الآلات الموسيقية حيث أشار إلى تنوعها وتميزها. لا يتيح النص العربي إمكانية الوقوف على ذلك، بيد أن أوبيني (Aubigny) يشير إلى أن محمد أفندي وعد بإدخال الأورغ إلى الموسيقى العثمانية، بل هناك من يذكر أن محمد أفندي بعث موسيقيا عثمانيا إلى فرنسا ليتعلم العزف على هذه الآلة.

ويبدو أن استقبال العثمانيين لهذه التقاليد الترفيهية خلال القرن الثامن عشر عرف تطورا وتعود عليه من زار منهم أوروبا إلى درجة أن عزمي أفندي الذي زار برلين سنة 1780 لم يكترث بوصف الأوبرا بتلك الدقة التي نجدها عند محمد أفندي وأشار فقط إلى أنه دعي لحضور حفلة أقيمت بها.

ج- العلوم والتكنولوجيا

كان محمد أفندي حريصا على وصف التطورات العلمية في فرنسا خاصة وأن الغرض من هذه السفارتنامه كان بالأساس تسجيل ما يراه من تطورات علمية وتكنولوجية يمكن أن تعتمد في الدولة العثمانية. لقد كانت التكنولوجيا والفهم الجديد للعلم من وراء التوسع التجاري والتفوق العسكري الأوربي. فكانت هذه التكنولوجيا بالتالي محددا للعلاقات بين الدولة العثمانية والغرب. وسعى المسلمون إلى الأخذ بما اعتبروه وسائل للتقدم ومواجهة الأزمات.

وقد ركز السفير العثماني في وصفه على مجالين اثنين في هذا الباب:

---

(1) Fatma Muge GOCEK, *East Encounters West, France and Ottoman Empire in the Eighteenh Century*, Oxford University Press, 1987, p.46

(2) Mehmed Efendi, *Le Paradis des infidels*, p.119.

الأول، عسكري حيث عني بالتداريب التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي وبالمستشفى العسكري في باريس. أما الثاني فعلمي ركز فيه بالأساس على المرصد ومصانع المرايا ومتحف التاريخ الطبيعي. وفي المجالين معا لم يتطرق السفير إلى الجانب النظري ولكنه ركز بالأساس على المؤسسات والأدوات التي تشكل القاعدة المادية لكل تطور علمي.

لقد كان المجال الأول مهما بالنسبة للدولة العثمانية خاصة وأن المسؤولين العثمانيين اقتنعوا بأن سبب تراجع الدولة العثمانية وعدم قدراتها على مواجهة التحديات الجديدة يرجع إلى ضعف قوتها العسكرية. فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تحقق قواتها العسكرية أي نصر وانهزمت في كل المعارك التي خاضتها[1]. أما في مجال العلوم فقد كانت الدولة العثمانية في أزمة عميقة منذ القرن السابع عشر حيث كان التعليم في مدارسها يقوم على أساس الفقه والشريعة وغابت في هذه المدارس المواد العلمية الوضعية. فقد تدهور تدريس الطب منذ القرن السابع عشر وانتشرت في البلاد العثمانية بعض الممارسات الطبية التي كان لها أوخم الأثر على صحة الساكنة العثمانية. ولما انتشرت بعض الأمراض الخطيرة كداء الزهري في القرن السابع عشر لم يكن أمام العثمانية سوى اللجوء إلى الطب الأوروبي[2].

وعندما كان محمد أفندي يصف العلوم والتكنولوجيا في فرنسا فإنه يريد أن يبرز الاختلافات الواضحة بين وضعية الجيش والعلوم في الدولة العثمانية وحالتهما في فرنسا.

فعندما دعي إلى حضور الاستعراض العسكري وقف السفير العثماني مشدوها عند انضباط هذه القوات التي كانت تستجيب لإشارة واحدة "حتى كنت أنظر إليهم متعجبا لأن حركتهم مع كثرتهم كأنها حركة شخص واحد". لقد كان الابتكار الفرنسي على مستوى القوات الحربية في مائة وخمس وعشرين

---

(1) بنحادة، عبدالرحيم، **العثمانيون: المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، منشورات سبو، 2008، ص. 49.

(2) Gocek (Muge Fatma), *East Encounters West : France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, Oxford University Press, 1987, p.104

شكلا من أشكال التحصين التي أبرزها محمد أفندي. ويرى محمد أفندي أيضا أن المستشفى العسكري يعتبر واحدة من نقط القوة في المؤسسة العسكرية الفرنسية، فهو يدل في نظره على توجه الدولة إلى العناية بجيشها. فعندما دخل إلى المستشفى العسكري أثارته بشكل كبير نظافة الأسرة وفخامتها حيث يشبهها بـ"الفرشات التي توجد في بيوت الأكابر". كما يقف عند التجهيزات المتوفرة في المستشفى والطاقم الطبي الذي يشرف على المرضى هذا بالإضافة إلى ما يوفره المستشفى من أدوية من أجل ضمان علاج للمعطوبين والمرضى من العسكريين. هذا الوصف الذي يقدمه للمستشفى العسكري هو نتاج شبكة الرعاية الاجتماعية الغائبة عند العثمانيين.

لقد وقف السفير العثماني منبهرا أمام التطورات التكنولوجية الأخرى في باريس وفصل في الحديث عن المرصد الفلكي الذي "ما شاهد مثله، ذلك لأن من أراد علم ذلك يمكنه بأدنى وقت بواسطة آلات معرفة ما ذكر". أدهشته كثرة الآلات التي أدرك بسرعة قيمتها وأهميتها، والتي تمكن من "معرفة حركة الأفلاك والتي تمكن من رفع الماء من أسفل إلى أعلى وأشياء غريبة وعجيبة"، كما يتحدث عن المرايا "نارية من فولاذ واسعة على مقدار الموائد الكبيرة موضوعة على كراسي قوائمها من الحديد." بيد أن أهم شيء يقف عنده السفير هو أداة المنظار التي تمكن من متابعة حركة النجوم نهارا.

أما المعلمة التكنولوجية الثانية التي وقف عندها محمد أفندي بعد المرصد الفلكي فهي متحف التاريخ الطبيعي. ومرة أخرى يقف محمد أفندي مشدوها أمام هذه المعلمة ولا يخفي إعجابه قائلا: " فكيف لا يصوغ لنا الإطناب ألا نزيد في مدح هذه المعرفة التامة لا سيما لأجل الاجتهاد في إتقان الحكمة وأخذهم الأموال بمعرفتها وإتقانها وفاقوا بذلك على أربابها."

يقدم السفير العثماني وصفا لأجنحة هذه المعلمة التي زارها وهي قسم علم التشريح والطب والنبات. وفي الجناح الأول الخاص بالتشريح يتوقف عند قسمين: القسم الخاص بالحيوانات من طيور وفيلة وغيرها، أما القسم الثاني

فبشري ويضم جثت رجال وأطفال ونساء "المجردة من لحمها ... بحيث ترى عيانا جميع الأعضاء الواحد بعد الآخر، وعملوا أيضا من الشمع العسلي لحما وعروقا ومفاصل مفترقه عن بعضها البعض". ويرى أن الغرض من ذلك هو التدريس بحيث تساهم هذه المعروضات في تلقين "دقة الحكمة والفطنة بأدنى سهولة".

أما الجناح الثاني الخاص بالطب فقد زار فيه محمد أفندي الأماكن الخاصة بحفظ الأدوية، وينوه بالجهود التي بذلها العلماء الأطباء في توفير الأدوية وصناعتها لمواجهة "سائر العلل والأمراض". وقد وضعت هذه الأدوية في قناني خاصة بها في خزائن عديدة.

أما الجناح الثالث فيخص النبات، ففي هذا الجناح تحفظ وتغرس جميع أنواع النباتات فلا توجد "عشبة مفيدة في بلاد العجم أو في بلاد اليزبيك أو في يكي دنيا (Yeni Dúnya العالم الجديد) أو الهند أو السند وغيرها إلا وهي مغروسة عندهم بهذا المقدار". وفي هذا الباب يشير السفير بإعجاب كبير إلى استعمال الفرنسيين "للبيوت الفلاحية" (Serre) لتوفير شروط نمو النباتات التي لا توافق البيئة الطبيعية الفرنسية، وهي التقنية التي تم تبنيها في البلاد العثمانية بعد عودة السفير.

يغض السفير العثماني الطرف عن المكتبات التي زارها. وتضمن الروايات الفرنسية للسفارة، خاصة ماورد في جريدة (Le Mercure)، حول زيارته للمكتبة الملكية واستغرابه لوجود العديد من المخطوطات العربية، ومنها القرآن وكتب أخرى. ويبدو أن السفير حسب هذه الروايات كان عارفا بالكتب النادرة، ومن هذه الكتب النادرة التي وقف عندها في المكتبة الملكية كتاب في تاريخ الكتاب المقدس المزين بالعديد من المنمنمات التي تصور خلق العالم.

ويبدو من خلال نفس الروايات الفرنسية أن السفير العثماني حصل على الطبعة القديمة للأعمال الكاملة لأرسطو مترجمة إلى اللغة اللاتينية، وعلى إثر تسلم هذه الهدية صرح أنه سيستغل علاقاته المتميزة مع الصدر الأعظم ليقترح عليه إنشاء مؤسسة خاصة بالطباعة ومكتبة.

يغض السفير العثماني أيضا الطرف عن وصف زيارته للأكاديمية الملكية للعلوم التي تفصل فيها الروايات الفرنسية للزيارة، ووقف في هذه الزيارة مشدوها أمام التجارب الكيماوية التي عرضها عليه فريق العلماء بالأكاديمية، كما عرض عليه فريق آخر في حديقة الأكاديمية في بيرسي (Bercy) "انعكاسات المرايا" (Les effets de miroirs).

* * *

أصداء سفارة محمد أفندي

1- الصدى الآني للسفارة

حظيت سفارة محمد أفندي باهتمام بالغ في فرنسا، وغدت أخبارها متداولة بين الفرنسيين في مستويات مختلفة. وكانت موضوعا للعديد من التقارير الصحافية والسياسية كما كانت موضوعا للفنانين الفرنسيين وخاصة الرسامين والنحاتين.

أ- في الصحافة الفرنسية

اهتمت الصحافة الفرنسية بسفارة يكرمي سكز جلبي محمد أفندي فراحت تتابع أخبارها أولا بأول، وتمكننا الصحافة الفرنسية من الوقوف على معطيات أخرى تتعلق بالسفارة تغافلت عن ذكرها الرحلة أما لجهل صاحبها بجغرافية باريس أو نتيجة لإحجامه عن ذكرها لأسباب ثقافية. ومن الصحف التي اعتنت بسفارة محمد أفندي مجلة (Le Nouveau Mercure)[1] الواسعة الانتشار التي كانت تصدر شهريا. وقد تتبعت أخبار السفارة منذ وصولها إلى باريس.

ففي التقرير الصحفي الصادر في مارس 1721 تخبر المجلة بوصول محمد أفندي إلى (Corbeil) وتشير إلى أنه غادر في اليوم الموالي إلى مدينة باريس مصحوبا

(1) اعتمدنا في هذا الباب على الملحق الذي وضعه جيل فانشتين للرحلة، وهو عبارة عن التقارير الصحفية التي تتبعت أخبار السفارة بدء من تاريخ وصولها إلى باريس في مارس 1721 إلى تاريخ مغادرتها في بداية شهر أغسطس. ينظر:

Mehmed Efendi, *Le paradis*...pp.181 - 208.

بالسيد (Baume) الذي رافقه منذ حلوله بفرنسا. وتذكر المجلة حاشية السفير العثماني مع الإشارة بالخصوص إلى ابنه. يكشف المقال عن المكان الذي مكث به السفير طيلة مدة إقامته ويتعلق الأمر ببيت يسمى (Le Diable) الواقع في شارع (Charenton) في (Le Faubourg de Saint Antoine). وتعتبر هذه المعلومات مهمة لأنها تمكن من معرفة المسافات والمسالك التي كان السفير العثماني يقطعها في حله وترحاله في مدينة باريس وضاحيتها، كما أنها تسمح بمعرفة الأشخاص الذين أسندت إليهم مهمة مرافقة السفير.

أثناء توجه السفير إلى القصر الملكي حيث استقبله الملك، يتعرض المقال لوصف العربات التي كانت تعبر شوارع المدينة والتي كانت تقل الوفد التركي وإلى الشخصيات التي كانت ترافق السفارة العثمانية والإجراءات الأمنية في مختلف الشوارع التي تؤدي إلى الطريق الذي يعبره السفير العثماني. يشير هذا التقرير الصحفي كذلك إلى طريقة لباس الوفد العثماني المشكل من أربعين شخصا وإلى ازدحام الشوارع بالناس - ومعظمهم من النساء - الذين حجوا لملاقاة السفير وإلى الطريقة التي كان يرد محمد أفندي على تحيات الناس.

ويصف التقرير استقبال الملك للسفير العثماني بكثير من الدقة يجمع بين وصف لباس السفير ولباس الملك والاصطفاف البروتوكولي. ثم يعرض للخطاب الذي ألقاه السفير بحضرة الملك والذي كان يترجم بطريقة فورية من قبل مترجم الملك الأرميني الأصل (Le Noir). ويورد التقرير الصحفي مقتطفات من هذا الخطاب تتقاطع مع ما ورد في سفارتنامه محمد أفندي. ويشير التقرير إلى قضية على جانب كبير من الأهمية وتتعلق بالتعامل بالمثل في استقبال السفراء حيث يشير إلى أن الملك الفرنسي ظل جالسا أثناء إلقاء السفير العثماني كلمته.

وفي عددها لشهر أبريل 1721 عادت المجلة إلى تتبع زيارة السفير العثماني حيث توقفت عند حدثين هامين:

الأول، ويتعلق بزيارة (L'Abbe Bignon)[1] للسفير العثماني ونقاشهما حول العلوم والفنون في فرنسا والتركيز على الاختلافات الموجودة بين الموسيقى الفرنسية والإيطالية من جهة، والموسيقى العثمانية التركية من جهة ثانية.

أما الثاني، فيتعلق بالزيارة التي قام بها السفير إلى بيت المريشال (Villeroi) حيث فاجأه الملك هناك. ويشير المقال إلى أن فرنسا وضعت رهن إشارة السفير عربتين يستعملها أثناء تحركاته في العاصمة، كما وضعت رهن إشارته ستة فرسان لضمان أمنه وسلامته أثناء تحركاته.

وفي عدد شهر ماي 1721 أوردت المجلة أخبار السفارة والمتمثلة: في استقبال السفير العثماني من قبل الزوجة السابقة للسفير الفرنسي في القسطنطينية (Pierre Girardin) الذي تولى السفارة ما بين 1685 و1689.

ويشير التقرير الصحفي لشهر ماي إلى حادثة لم تجد صداها في السفارتنامه، فعندما كان السفير العثماني يتابع حفلة رقص الباليه بحضور الملك انحرفت رجل أحد الراقصين وارتطم بأعمدة الحديد وقضى نحبه بعد أن نزف دما.

ويورد التقرير أن السفير العثماني دعي لحفل العشاء الذي أقامه المريشال (Villeroi) في يوم 21 مايو، ويذكر التقرير الذي يتقاطع مع السفارتنامه في هذا الباب أن الوصي أدخله على الملك في قصره والذي طاف به ليعرض عليه مجوهرات القصر الملكي وتحفه. ولعل ما يضيفه التقرير هو انبهار وإعجاب السفير العثماني بالسجادات التي يعود تاريخ نسجها إلى عهد الملك لويس الرابع عشر. ويذكر التقرير أن مائدة العشاء جعلت السفير يتوسط امرأتين ويأتي التقرير على ذكر أسماء الذين حضروا في حفل العشاء هذا ومنهم السفير الهولندي في باريس. ويلاحظ التقرير أن السفير العثماني كان يأكل من كل شيء وأنه كان يكتفي بشرب عصير التفاح فيما كان ابنه سعيد يحتسي الجعة.

---

(1) كان جوليان بول بينيون (Julien-Paul Bignon) (1662 - 1743) من كبار مثقفي فرنسا في القرن الثامن عشر كان من رجال الكنيسة وكان يشغل وظيفة مكتبي كما أنه كان عضوا في الجمعية الملكية والأكاديمية الفرنسية وأكاديمية العلوم.

أما التقرير الصحفي الصادر في المجلة نفسها في شهر يونيو - يوليوز 1721، فيمكننا من معلومات أخرى عن الرحلة ويتتبعها بطريقة كرنولوجية. بعد إيراد خبر حضور أعضاء السفارة العثمانية لحفلة راقصة ليلة 21 يونيو استغرقت الليل كله إلى الخامسة صباحا وحضور محمد أفندي معظم الليلة، إذ لم يغادر إلا في الساعة الرابعة صباحا، يشير التقرير إلى حضوره يوم 16 يونيو حفل الشهب الاصطناعية ويسجل الحضور المكثف للنساء لهذا الحفل من على شرفات بلدية باريس. ويسجل التقرير بداية شهر رمضان غير أن المعلومات التي يقدمها لا تمت للسفارة بصلة حيث يستغرق التقرير في معنى شهر رمضان وفي طريقة تعامل الأتراك مع هذه الشعيرة المحمدية. وقد أورد التقرير زيارة السفير للمتحف الطبيعي في (Bercy) حيث استعرض العالم (Pajot d'Ozembray)[1] عددا من التجارب التي أخذت بلب السفير وجعلته يوجه له دعوة للعشاء معه لمواصلة الحديث في المواضيع العلمية.

ويورد التقرير الصحفي بعض الأنشطة الجانبية التي لا يذكرها محمد أفندي في رحلته السفارية، ومن بين هذه الأنشطة مثلا أن سعيد أفندي، ابن السفير، دعي لحضور حفل في كليشي وأن السفير وحاشيته دعوا لجولة في (Le Marais) : أحد الأحياء الراقية في باريس.

يحدد التقرير الصحفي يوم 19 يوليوز تاريخا لاستقبال الوداع الذي خص به الملك محمد أفندي. وكما هو الشأن بالنسبة للاستقبال يستغرق التقرير في سرد الشخصيات التي رافقت السفير من مقر إقامته إلى القصر الملكي والبرتوكول المتبع في المرافقة ويركز على الطابع الأمني حيث يذكر أن كل الطرق المؤدية إلى الشارع الذي يمر منه الموكب كانت مقفلة تحرس مداخلها قوات مختلفة. ويذكر التقرير أن السلطات الفرنسية خصصت للسفير إقامة في

---

(1) عالم موسوعي 1678-1754 متعدد الاختصاصات من الرياضيات إلى البيولوجيا مرورا بالفيزياء والكيمياء والفلك. كانت شهرته تتجاوز حدود فرنسا. وقد أصبح عضوا في الأكاديمية الملكية للعلوم منذ سنة 1716، ينظر:

L-F Alfred Maury, *Les académies d'autrefois*. L'ancienne académie des Sciences, Paris, 1864, p.321.

اللوفر (Le Louvre) للاستراحة قبل دخوله على الملك. في القصر الملكي يفصل التقرير في طريقة الاستقبال بما في ذلك الانحناءات الثلاثة التي قام بها السفير قبل الاقتراب من الملك للسلام عليه، وطريقة تسليم الرسالة الملكية الجوابية إلى السلطان العثماني. يبدو أن هذا البرتوكول كان معمولا به عند الطرفين.

ويشير التقرير إلى حضور سعيد أفندي باليه آخر في الأوبرا يوم 20 يوليوز وكان عنوان الباليه "الحفلات البندقية". كما يشير التقرير إلى الزيارة التي قام بها السفير العثماني إلى المكتبة الملكية والتي وقف خلالها على عدد من الكتب ذات الصلة بالعالم الإسلامي كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

في عدد المجلة الصادر في شهر غشت 1721 نشر تقرير صحفي آخر يتعرض لمغادرة السفير العثماني لباريس والانطباعات الجيدة التي خرج بها محمد أفندي عن فرنسا والفرنسيين حيث يشير التقرير إلى "تثمين السفير لعادات وطبائع أمتنا". لقد ترك السفير التركي فرنسا آسفا، فقد استمتع برحلته يقول التقرير وآخرها الخروج إلى الصيد صحبة دوق بوربون.

وقد أنهت المجلة سلسلة التقارير المتعلقة بالسفير في سبتمبر 1721 حيث خصص التقرير الأخير إلى حلول السفير الفرنسي بليون والاستقبال الحار الذي تم تخصيصه له في هذه المدينة حيث حضر حفلات موسيقية ومسرحية لا تقل أهمية عن تلك التي حضرها في باريس.

ب- في تقرير مثقف فرنسي

لم تكن الصحافة الفرنسية وحدها التي انشغلت بسفارة محمد أفندي، بل كان لها الصدى الواسع في مذكرات العديد من المسؤولين الفرنسيين، فقد اعتنى بها جان بوفا (Jean Buvat) الكاتب بالمكتبة الملكية[1]، الذي توقف في

(1) J. Buvat, *Journal de la Régence, 1715-1723*, Ed. Emile Campardon II, Paris, 1865.
وقد اعتمدنا هنا على المقتطفات التي أوردها جيل فانشتين كملحق لنشرة النص الفرنسي للرحلة. ينظر: Mehmed Efendi, *Le Paradis*. pp. 209-218.

بداية التقرير عند عدد أفراد البعثة العثمانية[1] وضمن هؤلاء يأتي على ذكر عدد من الفرنسيين ويشير إلى المهندس (Le Sieur Bon) وترجمان الملك (Lenoir) اللذين رافقا السفير من القسطنطينية. وانضم إليهما ترجمانين آخرين هما (Fienne) و (Yon).

وفي هذا التقرير يورد بوفا وصفا دقيقا عن الدخول الرسمي للسفير إلى باريس وعن لباس كل أعضاء الوفد التركي والخيول التي يركبونها وطريقة تزيين هذه الخيول. ويستطيع القارئ أن يلمس درجة الانبهار في هذا التقرير كما يستطيع أن يقف عند مراجعة بعض الصور النمطية التي تكونت لدى الفرنسيين عن الأتراك يقول بوفا: "كان العديد من هؤلاء الأتراك، الذين يحملون نبالا، شبابا بدون لحى شديدو بياض الوجه، وبالرغم من طول قاماتهم فإن العديد من الناس كانوا يظنونهم إناثا".

كان الاستقبال الملكي حسب بوفا يوم 21 مارس حيث يروي أن الطريق الرابطة بين مقر إقامة السفير في (Tournon) كانت مكتظة. وعند انتهاء حفل الاستقبال تأثر السفير العثماني بحرارة الاستقبال "إلى درجة أنه قرر إيفاد أحد رجالاته على الفور إلى القسطنطينية من أجل إخبار السيد الأعظم بذلك، وكان يريد أن يصل مكتوبه إلى القسطنطينية بنفس السرعة التي نبعت منها هذه الرغبة".

يتوقف هذا التقرير عند ثلاث قضايا أساسية بالغة الأهمية تقدم إضافات جديدة لنص الرحلة:

الأولى، هي الإشارة إلى أن من بين الأمور التي عني بها السفير قضية المغامر العثماني اللاجئ في فرنسا. ويذكر التقرير أن هذا المغامر الذي كان يدعى مصطفى أغا تنقل بين فرنسا وإيطاليا، وأنه تمكن من أن يتحول أميرا مناوئا للسلطان العثماني، واستطاع أن يحظى بتقدير بعض الشخصيات الوازنة

---

(1) يعطي التقرير رقما مخالفا لكل الأرقام الواردة في النصوص الأخرى ويتحدث عن بعثة مكونة من 80 نفرا. ينظر:

Gilles Veinstein, *Le Paradis*… p.209.

في المجتمع السياسي الفرنسي خاصة في السنوات الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر وبداية حكم الوصاية. وبمناسبة زيارة السفير العثماني محمد أفندي صدرت رسالة ملكية تنهي إقامة هذا المغامر وتمنحه أجل أربع وعشرين ساعة لمغادرة (Montbeliard). ويذكر بوفا أن هذا القرار كان من أجل إرضاء السفير الذي تقدم بطلب للملك والوصي بأن ينال هذا المغامر عقابه.

الثانية، وتتعلق بتدريس اللغتين العثمانية والعربية والقرار الذي تم اتخاذه أثناء وجود السفير بباريس والقاضي بإعطاء أهمية لهاتين اللغتين في فرنسا، ويربط بوفا بين هذا القرار من جهة ووجود السفير العثماني في باريس. ففي شهر يوليو اتخذ الكونت دو تولوز (Le Conte de Toulouse) قرار تعليم عدد من الشباب في مدرسة الجزويت اللغتين العربية والعثمانية عوض إيفادهم إلى إستانبول والمشرق العربي. وقد عهد بهذه المهمة إلى السيد باروت (Sieur Barout) وهو من مواليد حلب وكان عمره 30 سنة وكان يتقن اللغات الفارسية والتركية والعربية واللاتينية والإيطالية وكان يهتم بالطب والجراحة وعلم النبات. وما يهم في هذا الإجراء في علاقته مع السفارة في نظرنا أمرين اثنين: أما الأول فيظهر في الرغبة التي ولدتها السفارة لدى المسؤولين الفرنسيين بضرورة تعلم اللغة التركية، وكان ذلك بمثابة مقدمة لإجراء كبير ستتخذه فرنسا فيما بعد المتمثل في إنشاء مدرسة اللغات والحضارات الشرقية سنة 1786. أما الثاني فيرتبط باستشارة السفير العثماني في هذا الشأن وتزكيته للمشرف على تدريس هذه اللغات. فقد أكد محمد أفندي، يقول بوفا، "أن باروت يعتبر متبحرا في مجال اللغات الشرقية، ولا يوجد من هو أحسن وأمهر منه في إجادتها".

وأما القضية الثالثة التي يتوقف عندها التقرير فتتعلق بزيارة المكتبة الملكية والوقوف عند كثرة وندرة المخطوطات المتعلقة بالعالم الإسلامي.

وبالإضافة إلى هذه القضايا التي بدت أساسية، يثير التقرير قضايا هامشية غير أنها تشكل إضافات جديدة وتميط اللثام عن بعض مواقف السفير الثقافية والتي لاذ عنها بالصمت في نص الرحلة، ومن ذلك مثلا الزيارة التي

قامت السيدة الماركيز (De Biron) مصحوبة ببناتها يوم 23 مارس والحديث الذي دار بينها وبين السفير العثماني. فقد كان من بين الأسئلة التي وجهتها له عن عدم اصطحابه إحدى زوجاته إلى فرنسا، فأجاب السفير أن هناك "سببان حالا دون ذلك، الأول وهو أن طول السفر في البحر كان من شأنه أن يسبب لهن تعبا كبيرا، أما الثاني فهو أنني كنت متأكدا من أنني سأجد نساء جميلات أكثر ممن كنت سأجلب معي. ومن أصل ستين ولدا ممن رزقت من مائة امرأة لم يبق لي سوى ولد رافقني وبنتا تركتها في القسطنطينية. لقد رأيت بنتكم في العديد من المرات عند زوجها سفير فرنسا دو بوناك وكانت تثير إعجاب كل من رآها".

ج- في تقارير رجال الإدارة والسياسة

كانت رحلة محمد أفندي إلى باريس مناسبة للعديد من البيروقراطيين والسياسيين الفرنسيين ممن أتيحت له فرصة اللقاء محمد أفندي لكتابة تقارير عن حدث إقامة السفير العثماني. وقد تميزت هذه التقارير بصفة عامة بطابعها الإثنوغرافي، وعكست إلى حد بعيد الصورة التي كونها الفرنسيون عن المسلمين خلال عصور. وهي صورة ظلت أسيرة النظرة الغرائبية التي ساهم رحالة فرنسيون في ترسيخها لدى النخبة.

لقد اهتمت هذه التقارير بشكل خاص بشخص السفير العثماني وسلوكه وطريقة تعامله واهتمت أيضا بحاشيته السفير مع التركيز على ابنه محمد سعيد.

يروي سان سيمون[1] أن السفير العثماني "كان متوسط القامة، ضخما ويبلغ من العمر ستون سنة، كان حسن الوجه مهيب الجانب يمشي الخيلاء مرفوع الرأس ثاقب النظر، يدخل حيث أتباعه كسيد العالم بأدب وعظمة، يأخذ مكانه ضمن الصفوف الأولى دون شكليات وسط النساء اللائي يعرف كيف يعاملهن دون حرج". وهذا الوثوق بالنفس والسلاسة في التعامل مع محاوريه نساء ورجالا هو ما نجده يتردد في تقارير الذين التقوا به.

---

(1) Saint Simon, *Memoires*, Editions Boislisle, Paris, 1926 .

اعتمدنا على المقتطفات التي أوردها جيل فانستين ملاحق للنص الفرنسي.

Mehmed Efendi, *Le Paradis*… pp. 225-227.

وكان السفير حسب هذه التقارير حريصا على أداء شعائره الدينية، ولم يجد أي حرج في ممارستها أمام الملأ. وعن هذا الجانب يذكر (Le Dran)[1] أن مؤذن السفارة كان ينادي بكل الصلوات الخمس في أوقاتها انطلاقا من أعلى نقطة في البيت وكان كل أعضاء السفارة يسرعون إلى غرفة السفير لأداء الصلاة جماعة.

وتجمع التقارير أيضا على أن السفير كان لا يمانع في تلبية الدعوات التي كان يتلقاها من كبار القوم في فرنسا، وكان خلال هذه الحفلات يأكل ويشرب بطلاقة، وإن كان (Le Dran) يرى أنه كان حريصا على ألا يتناول سوى الأطعمة المحضرة على الطريقة الإسلامية.

وقد اثارت التقارير مسألة تعامل السفير مع ما كان يعرض من مشروبات كحولية ونبيذ خلال الحفلات، فتذكر أن السفير كان يمتنع عن شرب الخمر أمام العموم، غير أنه لم يكن يمانع في تقديم النبيذ لحاشيته وفي نفس الوقت لم يكن يتسامح مع أولئك الذين كانوا يغالون في الشرب ويظهرون ذلك للعموم. وتفيد تقارير أخرى أن محمد أفندي نفسه كان يتناول المشروبات الكحولية في غرفته سرا.

أما بخصوص حاشية السفير، فتتوقف التقارير بالخصوص عند محمد سعيد أفندي، ويذكر بعضها الشائعات التي راجت حول كونه ابن السلطان وليس ابن السفير. كما تلمح إلى علاقاته مع النساء، وتشير الأميرة بلاتين (Palatine) - أم الوصي - في رسالتها إلى هارلينغ (Harling) إلى "أن ثلاث نساء من علية القوم قمن بأفعال شنيعة فقد تبعن ابن السفير إلى باريس وقضين معه يومين". وقد ندد التقرير/ الرسالة بهذا السلوك الذي يسيء لسمعة نساء فرنسا ويحرج السفير العثماني، "لقد كان السفير منزعجا للغاية، وقال لابنه أنه ينبغي أن يحاط هذا

---

(1) يعتبر تقرير (Le Dran) من بين أهم التقارير التي أنجزت عن سفارة محمد أفندي، فهو يروي الحياة اليومية للسفير العثماني ويستند في ذلك على الرسائل التي تبادلها مرافق السفير (De la Baune) مع (Dubois)، ينظر:

Mehmed Efendi, *Le Paradis*…pp.228 - 232.

الأمر بالسرية، ولو بلغ الخبر إلى القسطنطينية، وأن لابنه علاقات مع مسيحيات لقطع رأسه. إنه فعلا أمر فظيع!"[1].

ويتوقف تقرير آخر عند أحد أعضاء الوفد ويذكر أنه كان يهوديا[2]، وهو الكتخدا، وجاء محملا إلى فرنسا بتسعين قنطارا من القهوة وكان يبادلها مقابل الأثواب التي كان يستعمل لإلباس السفير وحاشيته.

وبالقدر الذي حظيت به السفارة باهتمام السياسيين والصحافيين والبيروقراطيين، وجدت السفارة مكانة لها في الإبداع الفني المصور وحظيت بمكانة بارزة عند رجال الفن ووضع الرسامون تجسيما للسفير العثماني محمد أفندي وحاشيته. ومن بين هؤلاء الرسامين شارل باروسيل (Charles Parocel) (1688-1752) وج. مارتن (J. Martin) (1659-1735). واستلهم عدد آخر من الرسامين سفارة محمد أفندي ووضع لها بعض المنمنمات.

ولم يكن محمد أفندي وابنه وحدهما اللذين كانا موضوعا لهذه الرسومات بل اعتنى الرسامون الفرنسيون بفريق السفارة إلى باريس، وقد غدت هذه الرسوم فضول الفرنسيين وأصبحت موضوعا استشراقيا بامتياز.

2- امتدادات جنة الكفار

لم تكن رحلة محمد أفندي محصورة في الزمن من حيث التأثير، بل تشكل علامة بارزة في التاريخ الثقافي والسياسي للدولة العثمانية. عندما عاد السفير العثماني سلم التقرير لمخدومه إبراهيم باشا، ولا شك أن التقرير عمم على النخبة والفاعلين السياسيين في الدولة العثمانية، ليعمم بشكل واسع بعد ذلك عندما تمت طباعته، ومن ثمة يمكن أن نتحدث على امتدادات الرحلة في مستويات متعددة.

---

(1) *Correspondance complète de Madame, duchesse d'Orléans née princesse Palatine, mère du régent*, traduction, G. Brunet II, Paris,1863, in Mehmed Efendi, *Le Paradis*... pp. 223-4.

(2) Le Dran, in Mehmed Efendi, *Le Paradis*..., p. 229.

ولا بد من التأكيد على أنه لم يكن ينظر إلى أعضاء العثمانية العائدين إلى إستانبول بشكل إيجابي في الأوساط العثمانية، فقد توزع الموقف منهم بين المشككين والرافضين. فهناك من المسؤولين العثمانيين من عارض استقبال السفير العثماني من قبل السلطان والصدر الأعظم لاطلاعهما على نتائج زيارته، بل هناك من ذهب إلى اقتراح نفيهم إلى ولايات بعيدة، كل هذا بالرغم من الاحتياطات التي أخذها محمد افندي في كتابة تقريره السفاري. وهناك من أخذته الريبة فيما كتبه ورأى أنه بالغ كثيرا في وصف معالم باريس إلى درجة أن "بعضهم، يقول السفير بوناك، جاء إلى السفارة للتأكد من صحة المعلومات التي قرأها في التقرير السفاري.

وبالرغم من مواقف التشكيك والريبة والاعتراض إلا أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا كان مقتنعا بما جاء في التقرير السفاري إلى درجة أنه صرح " أن ما قدمه محمد أفندي يدهشنا ويجعلنا أكثر تطلعا لمزيد من معرفة هذه المملكة (يقصد فرنسا)، ولو لم أكن وزيرا أعظما لتطلعت لأن أكون سفيرا للسلطان في باريس".

لقد مكن التقرير السفاري الذي أنجزه محمد أفندي المسؤولين في الدولة العثمانية من معرفة بعض المنتجات الفرنسية التي أصبح الإقبال عليها من السلطان ومحيطه قويا منذ ذلك الحين. ففي سنة 1722، أي في السنة الموالية لإنجاز السفارة، كلف الصدر الأعظم إبراهيم باشا الترجمان بالسفارة الفرنسية في إستانبول باستجلاب نظارات زجاجية وسجادات من دون صور وثلاثة مجاهر (ميكرسكوب) ومرايا وببغاوات شبيهة بتلك التي رآها محمد أفندي في شانتيي (Chantilly) وساعات جميلة بالإضافة إلى لوحات تجسم القصور والمدن والحدائق، كما طلب منه شفويا أن يستجلب له ألف قنينة من شامبانيا وتسعمائة قنينة من نبيذ بورغون.

لقد ساهمت السفارة أيضا في انتشار بعض العادات الجديدة في مجتمعات النخبة الإستانبولية، ويورد السفير الفرنسي بوناك أن السفير نفسه لم يتردد في اقتراح تبني ما شاهده في باريس على الصدر الأعظم، لقد أعجب السفير بقناة لونغدوك واقترح على إبراهيم باشا إنجاز واحدة شبيهة بها تسهل حركة المرور وتنمي تجارة المتوسط العثمانية، وهو ما حاوله الصدر الأعظم العثماني لاحقا.

وقد بدت تأثيرات مشاهدات محمد أفندي في الطريقة الجديدة في البناء حيث أقدم السلطان أحمد الثالث على إنشاء مجموعة من البنايات التي ظهر فيها التأثير الفرنسي واضحا، ومن هذه المنشئات النافورة التي أنشأها في الساحة المقابلة لقصر طوب قابي والتي تبرز هذا التركيب المتميز بين العمارة العثمانية والعمارة الفرنسية. وقد أنشئت هذه النافورة في سنة 1728 أي سنوات قليلة بعد عودة محمد أفندي من باريس.

لم تظهر آثار هذه السفارة على المدى القريب فحسب، بل كانت تأثيراتها ممتدة في الزمن البعيد، ولعب بعض الفاعلين فيها أدوار طلائعية في هذا الباب. ومن هؤلاء نذكر محمد سعيد أفندي. كان محمد سعيد أفندي من أهم أعضاء الوفد فقد رافق أباه كاتبا للسفارة، وقد رأينا أن السفير العثماني اعتمد كثيرا على نبوغ ونباهة ابنه في التحضير للسفارة. وفي باريس حضر محمد سعيد أفندي مختلف اللقاءات التي أجراها والده مع الفاعلين السياسيين والمثقفين. ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز الخامسة والعشرين. وقد تفاعل محمد سعيد أفندي مع ما شاهده في فرنسا أكثر من تفاعل أبيه وتأثر بما رآه، فقد أعطاه وضعه داخل السفارة وحداثة سنه حرية أكبر في التعاطي مع الحياة اليومية في فرنسا. وقد استأثر سعيد باهتمام المسؤولين الفرنسيين منذ أن وصل إلى فرنسا حيث نعته (Beaune) (النبيل المرافق للسفارة) بأنه كان "رجلا هادئ الطبع ... يحاول فهم اللغة الفرنسية ويعرف بعض جملها ويظهر أنه يفهم ما يجري من محادثات". لم يجانب بون الصواب إذ كان سعيد أفندي مهوسا بتعلم اللغات وحريصا على تعلمها خاصة اللغة الفرنسية حتى قبل ذهابه إلى فرنسا.

اندمج محمد سعيد أفندي في الحياة اليومية الفرنسية بحكم أنه لم يكن مقيدا بالبرتوكول الذي يتحكم في حركات وسكنات والده، وسعى إلى تعلم النحت على الخشب مثلا على يد (Madame Maubois) التي كانت معلمة الملك الفرنسي. وشارك في عدة سهرات وحفلات التي أخذته في العديد من المرات إلى الساعة الخامسة صباحا. وعاشر نساء مثلما ترويه مستنكرة الأميرة (Palatine) في رسالتها

إلى (M.de Harling)[1]. وتروي النصوص أن محمد سعيد أفندي كان عند انتهاء الزيارة قد استأنس بالحياة اليومية الفرنسية وأصبح يتكلم بطلاقة اللغة الفرنسية، بل تذكر بعض النصوص أنه عندما وصل إلى تونس في طريق عودته إلى إستانبول "كتب رسائل إلى أصدقائه في باريس باللغة الفرنسية وبخط يده، استعمل فيها العبارات اللبقة"[2].

وقد كان لهذا الاندماج في الحياة اليومية دور كبير في تشكيل شخصية الرجل ووجه ميولاته الثقافية. وإذا كان محمد أفندي قد استبعد من حاشية الصدر الأعظم عند عودته وتعيينه واليا إلا أن ابنه ظل على صلة وثيقة بأوساط البلاط العثماني. وعندما عقد العثمانيون العزم على توجيه سفارة إلى السويد كان محمد سعيد أفندي مرشحا لقيادتها. كما أننا نجده يعود إلى فرنسا سفيرا سنة 1742.

وقد لعب دورا طلائعيا على مستويات ثلاثة:

المستوى الأول لغوي، كان محمد سعيد أفندي منفتحا على اللغات وعاد بزاد مهم في اللغة الفرنسية، وقد ساعده في تحصيل هذا الزاد وبهذه السرعة معرفته باللغة اللاتينية، حيث تشير النصوص إلى معرفتها العميقة بها، زد على ذلك أن سعيد أفندي كان صديقا للسفارة الفرنسية في إستانبول. لقد أثر محمد سعيد أفندي في مجايليه، وأصبح الاهتمام باللغة الفرنسية وتعلمها يتزايد إلى أن أحدث العثمانيون مدرسة تخرج فيها من أصبح يكتب بالفرنسية حتى دون أن تطأ قدماه أرض فرنسا. وقد كان العثمانيون يرون أن تعلم هذه اللغة يعتبر بمثابة المفتاح للاطلاع على المنجزات العلمية الفرنسية.

المستوى الثاني تكنولوجي، ويتمثل في الدور الذي لعبه في إدخال الطباعة إلى الدولة العثمانية. ولعل هذا جاء تنفيذا للوعد الذي أخذ محمد أفندي على عاتقه عندما قال لأحد المسؤولين الفرنسيين في المكتبة الملكية أنه سيدخل الطباعة إلى الأراضي الإسلامية.

---

(1) Mehmed Efendi, *Le paradis*... p.223.

(2) Gocek, *East*… p.70.

لقد ساعد محمد سعيد أفندي إبراهيم متفرقة في إحداث أول المطبعة بالحروف العربية في المجالات العثمانية. وقد استطاع محمد سعيد أفندي إقناع السلطات العثمانية بضرورة إحداث هذه المطبعة، وإذا كان قد حقق مبتغاه إلا أن ذلك كان بشروط حيث منع على المطبعة إصدار الكتب الدينية، وبذلك نجدها تتخصص المطبعة في طباعة الكتب اللادينية، وشملت القواميس وكتبا في الجغرافية والتاريخ والتكتيك العسكري. وقد اشتغلت المطبعة إلى حدود سنة 1742 وتوقفت بعد أن أصدرت سبعة عشر عنوانا[1]. وكان من أهم الكتب التي نشرتها مطبعة إبراهيم متفرقة كتاب في التكتيك العسكري من إنجاز ابراهيم متفرقة نفسه، وهذا ما يعكس توجه الدولة العثمانية لإصلاح الجيش على شاكلة ما سجلته رحلة جنة الكفار.

المستوى الثالث عسكري، رأينا أن من بين أهم القضايا التي استأثرت باهتمام السفير العثماني انضباط الجيش وتنظيمه، وقد لعب محمد سعيد أفندي دورا كبيرا في ذلك. وفي الوقت نفسه كان الفصل الثالث من كتاب إبراهيم متفرقة يلح على أن الجيش الفرنسي يعتبر أقوى الجيوش الأوربية وأن العثمانيين مطالبون بتتبع خطاه إن هم أرادوا تجاوز الكبوات. وقد استفاد العثمانيون من هذه النصائح وصادف ذلك فرار أحد العسكريين والنبلاء الفرنسيين، الكونت دوبونفال،[2] الذي وصل الى إستانبول في سنة 1729 أي سنوات بعد السفارة، وتحول إلى الإسلام ودخل في خدمة الجيش العثماني وعهد إليه بإصلاح المدفعية العثمانية سنة 1731، وعندما أحدثت أول مدرسة عسكرية في إستانبول سنة 1734 تولى أحمد باشا منصب رئيس المدفعجيين. وبالرغم من أن محاولات الإصلاح باءت بالفشل، لم يقف التحديثيون العثمانيون مكتوفي الأيدي بل عاودوا الكرة بإحداث مدرسة أخرى للهندسة سنة 1773.

---

(1) عبدالرحيم بنحادة، **العثمانيون**... ص.281.

(2) يتعلق الأمر بـــ (Claude Alexandre, Conte de Bonneval) المتوفى بإستانبول سنة 1747. وقد كان هذا الارستقراطي الفرنسي في خدمة الجيش الفرنسي منذ حداثة سنه، غير أنه لأسباب متعددة غادر فرنسا ولجأ إلى الباب العالي ليعتنق الإسلام وليكون من العناصر الفرنسية الأولى التي ساهمت في الإصلاحات العسكرية التي أقدم عليها السلطان محمود الأول.
Lewis, *comment*... p.42

وعلى صعيد آخر، مارست الرحلة تأثيرا كبيرا في التحركات الديبلوماسية العثمانية، ومارست هذا التأثير على كتاب السفارتنامه ليس فقط من أولئك الذين توجهوا إلى فرنسا فحسب بل كل السفراء العثمانيين إلى البلاد الأوربية. لقد نقل السفير العثماني السفارتنامه العثمانية من مجرد عرض لوقائع الاستقبال وإجراء المفاوضات إلى أداة لوصف أدوات التقدم الأوروبي.

وقدم محمد أفندي خدمة جلى للسفراء الذين جاءوا بعده ممن طولبوا بكتابة تقارير سفارية حيث عملوا على النسج على منواله. بل حاول بعضهم تطوير طريقة الوصف عن طريق انتهاج الدقة في الوصف والانتباه الشديد للظواهر المميزة للمجتمعات التي زاروها، والأكثر من ذلك أن البعض الآخر لم يكتف بالوصف بل سعى إلى التحليل بالاحتكام إلى النظريات الخلدونية. كانت تلك حالة أحمد رسمي أفندي (1700 - 1783) الذي حل بفيينا سنة 1757 ثم برلين سنة 1774. فقد استطاع هذا البيروقراطي ان يتصدى بالتحليل لظاهرة الصعود الروسي وقدرة العثمانيين على قهره مهما كانت الظروف. وتلك هي حالة عزمي أفندي أيضا الذي زار برلين ما بين 1790 و1792 والذي تعرض في القسم الثاني من تقريره لوصف الإدارة في بروسيا والمناصب العليا في الدولة والسكان وطريقة تخزين المؤن والنظم العسكرية ومخازن الذخيرة وترسانات المدفعية. وقد كان واضحا أن عزمي أفندي كان يستحضر محمد أفندي في هذه الأوصاف وبدا ذلك واضحا في استحضار وصف البنيات التي ارتكز عليها الاقتصاد البروسي خاصة في مجال الطرق.

ولا نشك في التأثير الذي مارسته سفارتنامه محمد أفندي على أبي بكر راتب أفندي الذي زار فيينا ونقل إلى السلطان سليم الثالث أسس وخطاطة النظام الجديد والإيراد الجديد اللذين اعتمدتهما الدولة العثمانية في الإصلاحات العسكرية والمالية التي أقدمت عليها[1].

---

(1) عبدالرحيم بنحادة، "بين الرحلة السفارية والتقرير الديبلوماسي: السفارتنامه العثمانية"، في **التاريخ والدبلوماسية. قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق عبدالمجيد القدوري، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2000، صص. 103-125.

غير انه عندما نستحضر أوصاف أحمد رسمي أفندي وعزمي أفندي وأبو بكر راتب أفندي لا بد ألا يعزب عن بالنا أيضا طبيعة المرحلة التي أنجزت فيها، فحضور الدقة والتحليل مرتبط أشد الارتباط بالمناخ العام، فقد صادفت سفارات هؤلاء القطع مع التردد في الأخذ بالتجارب الأوربية الذي ميز بداية القرن الثامن عشر. فقد جاءت سفارة عزمي في جو مشبع بالإصلاحات التي سنها سليم الثالث والتي فتحت الباب على مصراعيه للأخذ بوسائل التقدم الأوروبي.

لم يكن تأثير سفارتنامه محمد أفندي، بالرغم من اتخاذه نموذجا يقتدى من قبل أحمد رسمي أفندي وعزمي أفندي وأبي بكر راتب أفندي، كبيرا بالشكل الذي يمكن أن نلاحظه في التقارير السفارية التي أنجزت عن فرنسا.

ففي سنة 1792 قرر السلطان سليم الثالث، وفي إطار سياسته الأوربية الرامية إلى التقارب مع الدول الأوربية في أفق الاستفادة من تجاربها لإصلاح الدولة والمجتمع، إيفاد سفراء آخرين في أفق إقرار تقليد السفير المقيم. وفي هذا الإطار وجهت الدولة العثمانية مبعوثا آخر إلى باريس، يتعلق الأمر بالسيد على مورالى أفندي.

وصل السيد علي مورالي إلى باريس في ظل ظروف جديدة، إذ يعتبر أول سفير عثماني يصل إلى فرنسا غداة الثورة الفرنسية سنة 1789، لم يكن علي مورالي يتقن اللغة الفرنسية بالرغم من العلاقات التي نسجها في إستانبول مع السفارة الفرنسية، ولم يسعفه الإلمام بمبادئ اللغتين الإغريقية والإيطالية في اكتساب اللغة الفرنسية، ومن ثمة صعب عليه ان يحيط بالحياة السياسية الفرنسية وبالتحولات التي عرفتها فرنسا بعد الثورة. وصعب عليه أيضا أن يحيط بدسائس نابوليون ولم يتمكن من إخبار السلطات العثمانية بنوايا الحملة التي توجه على رأسها نابوليون إلى مصر فأخبر الباب العالي أن هذا الأخير توجه للقضاء على فرسان مالطة أعداء الدولة العثمانية.

أما عبد الرحيم محب أفندي فقد كان ثاني سفير مقيم في باريس[1]، ووصل هو الآخر في ظرف صعب حيث استغرقت إقامته في باريس من سنة 1806 إلى سنة 1811. وبدأ سفارته بأزمة ديبلوماسية عندما رفض استخدام "ملك روما" كلقب من ألقاب نابوليون، وعند إلحاح طاليران على هذا الاستعمال واجهه السفير العثماني، بل أثار ضجة كبيرة عندما افترت عليه الصحافة الفرنسية استعماله. ويبدو أن السلطان العثماني لم يكن راضيا على تعيينه بسبب فشله في حل أولى أزماته الديبلوماسية وبالتالي كان تقييمه له لا يختلف عن رأيه في السيد علي مورالي.

ترك كل من مورالي وعبد الرحيم محب أفندي تقريرين سفاريين مهمين. كان محمد أفندي بالنسبة للسيد علي مورالي النموذج/المنوال لكتابة تقريره السفاري، ولم يكترث بالقارئ المطلع على نص الرحلة التي كانت قد وجدت طريقها الى كتاب "تاريخ راشد" الواسع الانتشار في أوساط النخبة المثقفة. لقد كان بالإمكان أن يتعامل مع النص بطريقة مختلفة غير أنه -وكما يذهب إلى ذلك ستيفان إيراسيموس- [2] لم يكن على قدر من المعرفة والإحاطة. لم يقم السيد علي مورالي إلا بإعادة اجترار ما كتبه محمد أفندي خلال ثلثي الرحلة. فقد سار على خطاه في وصف المواقع التي زارها بإستثناء تلك التي تعرضت للخراب مع الثورة الفرنسية كقصر مارلي مثلا.

ويمكن أن نميز في النص بين فقرتين:

الأولى وهي التي خصصها للمعالم التي زارها محمد أفندي قبل 77 سنة: المرصد ومتحف السجاد ومصنع الزجاج وحديقة النباتات وكذلك فرساي وسان

---

(1) لم يتول محب أفندي مباشرة بعد مورالي أفندي، فقد عينت الإدارة العثمانية سفيرا آخر وهو خالد أفندي غير أنه لم يتمكن من تمثيل الدولة العثمانية في فرنسا. إذ غادر إستانبول في يوليو 1803 وسلم رسالة اعتماده إلى نابوليون في سبتمبر وعاد أعقابه في 2 أكتوبر من نفس السنة. ويعود السبب في ذلك أن الدولة العثمانية تخلت عن تقليد السفير المقيم لأسباب ترتبط بالوضعية الداخلية الصعبة. ينظر: Yerasimos (Stephane), *Deux Ottomans à Paris sous le Directoire et l'empire*, Sinbad Actes Sud, Paris 1998, p.30.

(2) Yerasimos, *op.cit*, p.19.

كلو والمكتبة الملكية، وفي وصف هذه المعالم لم يستطع مورالي التخلص من محمد أفندي. ويمكن القول إن السيد علي كان أسيرا لرحلة سابقه. ويمكن أن نعدد الأمثلة التي تؤكد التناص بين السيد علي ومحمد أفندي. فعند الحديث عن ساكنة باريس حيث يكرر نفس العبارات التي أوردها محمد أفندي عندما يقارن بين القسطنطينية وباريس: "ليس صحيحا أن باريس أكبر من القسطنطينية ولكن بيوتها بنيت على ثلاثة إلى أربعة طوابق وأكثرها على سبعة، وكل طابق تسكن فيه أسرة بكاملها. و تزدحم شوارع باريس بسبب كثرة النساء اللواتي لا يمكنهن القاء في بيوتهن ويتجولن من بيت إلى بيت طيلة اليوم. هذا الاختلاط بين الرجال والنساء هو الذي يظهر المدينة آهلة أكثر مما هي عليه. وتشتغل النساء بالتجارة ويبقين في الدكاكين التي تمتلأ بأشياء نادرة ومثيرة"[(1)].

وعندما يعرض للنساء وحريتهن في باريس، يردد مورالي نفس عبارات محمد أفندي عندما يقول: "وفي فرنسا يقيم الرجال احتراما كبيرا للنساء، وكان كبار القوم يقيمون اعتبارا كبيرا للمرأة إلى درجة أن النساء كن يقمن بما يردن والذهاب إلى حيث يشأن وكانت أوامرهن تمر قبل كل شيء. ويقال إن فرنسا جنتهن لأنهن كان يعشن فيها متحررات من كل الصعاب بحيث كن يحصلن على أي شيء يرغبن فيه بسهولة"[(2)].

ولا تختلف أوصافه لإقبال الناس على موكب السفارة أثناء خروجها وطريقة تسليم رسالة الاعتماد عن تلك التي تضمنتها رحلة محمد أفندي، يقول السيد علي مورالي: "وبما أنه لم يبعث بأي سفارة من قبل الدولة العثمانية إلى باريس منذ خمس وخمسين سنة فإنه من غير الممكن وصف ورواية ازدحام الناس من أجل رؤيتنا. وقد استغل مديرو الأوبرا وأرباب الحدائق هذه الفرصة ليكسبوا المال، فقد كان هؤلاء يقومون بدعوتنا بإلحاح ... وكنا نستجيب لهذه الدعوات رغما عنا بالذهاب إلى الأوبرا والكوميديا وإلى التجول في الحدائق"[(3)].

---

(1) Yerasimos, *op.cit*, 135.

(2) نفسه

(3) Yerasimos, *op.cit*,…p.93

وبنفس القدر الذي لم يتمكن السيد علي مورالي من تجاوز محمد أفندي في الفقرة الأولى، لم يستطع محب أفندي أن يتخلص من وطأة محمد أفندي بالرغم من تحمسه للخلاص منه. فمنذ البداية يوجه عبد الرحيم محب أفندي انتقاداته إلى جنة الكفار. ويبدو أن محب أفندي سعى منذ البداية إلى تحجيم رحلة محمد أفندي عندما اعتبر أن ما قام به يكرمي سكز جلبي لا يعدو أن يكون وصفا لـ "حفلات الشهب الاصطناعية والاجتماعات التي دعي إليها والاستعراضات العسكرية وحفلات الأوبرا وحفلات رقص الباليه والمعادن والزهور والأحجار والأشجار ومختلف أنواع الحيوانات والاختراعات العجيبة والمجسمات والقناطر والبرك التي أثارت انتباهه"، ويعتبر أن هذه الأوصاف أصبحت متجاوزة ويقول "منذ زمن تحسنت الأحوال الحياتية لهذه الشعوب مما جعل هذه النصوص مليئة بالثغرات، سأحاول ملأها عن طريق كتابة ما لم يقل ناقلا هنا ما استطعت مشاهدته عن قوانينهم وشرائعهم..."[1]. على أن محب أفندي لا يقف عند هذا الحد بل يعتبر أن محمد أفندي "وهذا ليس سرا... لم يتعرض ولم يقدم كيفية تدبير الحكم عند الفرنسيين في ذلك الزمن ولم يعرض للقوانين التي كانوا يشتغلون بها ولا إلى أعراف دولتهم وخصوصياتها... "[2].

تقع رحلة محب أفندي في اثني وأربعين فصلا تبدأ بالحديث عن الجيش والخدمة العسكرية، وبعدها يعرض المؤلف لأمور التربية بواسطة الحديث عن التربية العسكرية، ويتوقف في أحد الفصول عند العلوم التي كانت تدرس في فرنسا ومن بينها الفيزياء والكيمياء، مسجلا أنها ذات العلوم التي كانت تعتبر "علوم جزئيه" عند العثمانيين. ويخص السفير العثماني الأجهزة الساهرة على أمن المدينة كالبوليس ببعض الفقرات، كما يتعرض لنظام المحاكم والعقوبات التي تصدر عن هذه المحاكم في حق المتهمين، وهنا يتوقف عند المقصلة ويذكر أن هذه الآلة استحدثت زمن الجمهورية من قبل طبيب حملت اسمه، ويذكر " أن حكمها يصدر في حق المواطنين الفرنسيين يوميا". ويدين السفير العثماني هذا

(1) Yerasimos, *op.cit*,... p.170

(2) Yerasimos, *ibid*.

النظام، وتعتبر هذه الإدانة انعكاسا للموقف العثماني من مجريات الأحداث في فرنسا زمن الجمهورية وهو موقف ساهم في توتر العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية وجعل مهمة السفير العثماني تتميز بالكثير من الصعوبات.

وخلال الفصول الاثنين والأربعين لا يصف السفير العثماني المظاهر العسكرية فحسب بل أثارته القضايا التقنية المستجدة منذ زمن محمد أفندي، فراح يقدم وصفا لها بالكثير من الإعجاب والدهشة ولعل أحسن مثال على ذلك عندما فصل في وصف نظام البريد والتلغراف.

لقد زار محمد أفندي في بداية القرن الثامن عشر العديد من المنشآت كالمكتبة الملكية ودور الطباعة غير أنه لم يتناولها بالوصف في تقريره السفاري، وهو ما جعل محب أفندي يقبل على وصفها بدقة، فقد زار مطابع صحيفة (Le Moniteur) ووصف مختلف المراحل التي تمر منها طباعة هذه الصحيفة.

لقد حاول عبد الرحيم محب أفندي الإفلات من وطأة سفارتنامه محمد أفندي غير أنها ظلت حاضرة بقوة في تقريره: في الاقتباسات بل وحتى في النقد الذي نالته كما في تبني طريقة الوصف. لقد جثمت جنة الكفار بثقلها حتى في الفقرات التي اعتقد محب أفندي أنه أبدع فيها وتجاوز محمد أفندي.

* * *

متن السفارة: بين النصوص العثمانية وترجماتها

منذ بداية السفارتنامه كتب محمد أفندي يرجو "من الله أن يعينني على قضاء هذه المهمة وأن يعيدني سالما إلى مسقط رأسي وسأعمل منذ اليوم، بعون العلي القدير، على تدوين مجريات الرحلة يوما بيوم ووصف الأماكن التي أمر منها والمواقع التي سأراها ومن الله توفيقي". وعندما عاد السفير العثماني إلى القسطنطينية أخبر مخدومه إبراهيم باشا بذلك، وسلمه بعد الانكباب مدة ثلاثة أيام ملخصا لهذه الرحلة. ولما كان السفير الفرنسي يتابع عن كثب هذه السفارة ولما كانت علاقاته ممتازة مع الصدر الأعظم فقد كان

أول من سلمت له الرحلة. وقد دعا السفير الفرنسي أحد التراجمة الشباب، وهو (Julien-Claude Galland)[1] إلى ترجمة هذا النص إلى اللغة الفرنسية. وبعد سنتين من ذلك توصل السفير الفرنسي بصيغة مطولة للرحلة[2] فأعطاها مرة أخرى لنفس الشاب الذي كان قد أمسك بناصية اللغة. ويرى جيل فانشتين أن هذه الترجمة بالرغم من بعض الاختلالات المتعلقة بالتركيب، إلا أنها تعتبر من أحسن الترجمات التي أنجزت.

والظاهر أن بوناك لم يكن راضيا على بعض المقاطع التي تضمنها النص والتي اعتبرها مسيئة لفرنسا، فحرص على تعديل النص وسحبها من خلال مفاوضات مع السفير العثماني استغرقت ما يزيد على ستة أشهر. ومن ثمة اختلاف الترجمات المتعددة للنص.

نشرت الترجمة الأولى للنص سنة 1757 وكانت هي الصيغة الأولى التي أنجزها كالان وتتطابق مع النص الذي تضمنه تاريخ راشد. وأعيد نشرها للمرة الثانية في السنة الموالية. ومن بين الترجمات التي نجد لهذا النص، الترجمة التي أنجزها (Philippe Joseph Aubert) ترجمان فرنسا في حلب في بداية القرن الثامن عشر. هذا بالإضافة إلى ترجمة أخرى أنجزها (John Seckerin) سنة 1841. وفي سنة 1889 قام المستشرق الفرنسي (D'Aubigny) بترجمة النص مرة أخرى واستندت هذه الترجمة[3] بالأساس إلى مختلف النصوص.

أما عن النصوص العثمانية للرحلة فينبغي الإشارة إلى وجود نسخ مخطوطة متعددة منها وهو ما يؤشر إلى الصدى الكبير لهذه الرحلة والإقبال عليها من

---

(1) لم يكن عمر (Julien-Claude Galland) آنذاك يتجاوز السادسة عشرة ولم يكن قضى أكثر من سنتين في تعلم اللغة العثمانية.

(2) نشر نص الترجمة في وقت مبكر في باريس بعنوان:
Relation de l'ambassade de Mehmet Efendi a la cour de France en 1721 écrite par lui même et traduite par J.C. Galland, Paris – Ganeau, 1757.

(3) D Aubigny, "Un ambassadeur turc à Paris sous la Régence, Ambassade de Mehmet Efendi en France, d'après la relation écrite par lui-même et des documents inédits", in *Revue d'Histoire Diplomatique*, III, 1et 2, Paris 1889.

قبل نساخ الكتب العثمانية. وينبغي الإشارة هنا إلى 12 مخطوطة موزعة على مختلف المكتبات التركية والأوربية. ويورد أوناط[1] قائمة بالنصوص المخطوطة للرحلة ويقسمها إلى مجموعتين، الأولى، تتكون من أربع نسخ محفوظة في مكتبة فاتح الوطنية (رقم 638) وقصر طوب قابي (رقم 1432) ومكتبة زهد بك (رقم340) ومكتبة جامعة إستانبول (رقم 3232). أما المجموعة الثانية فتتكون من مخطوطات موزعة على مكتبات برلين الوطنية (رقم 196) ومكتبة كوثه لاندز (رقم 148) ومكتبة جامعة أوبسالا (رقم 294) والمكتبة الوطنية بباريس (رقم 1408) والمكتبة الوطنية في فيينا (رقم 1098).

وقد نشرت الرحلة لمرات ثلاثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، الأولى وتضمنها **تاريخ راشد**[2] عندما طبع سنة 1865، والثانية نشرت ضمن مطبوعات المطبعة العلمية العثمانية سنة 1866[3]، أما النشرة الثالثة فقد اعتنت بها مطبعة أبو الضياء في إستانبول سنة 1889[4].

ولابد من الإشارة هنا إلى طبعة بيداغوجية، أنجزت لفائدة طلبة المدرسة الفرنسية للغات الشرقية وقد أشرف على هذه النشرة صواوي أفندي والتي طبعت في باريس سنة 1872. ولم يتم الاهتمام بالنص الأصلي فحسب بل انصب الاهتمام أيضا على ترجمة النص الفرنسي للرحلة الذي أنجزه كالان إلى اللغة العثمانية والذي تداوله طلاب المدرسة الملكية للغات.

وفي سبعينيات القرن العشرين اهتم المؤرخون الأتراك بنص جنة الكفار فترجموه إلى اللغة التركية الحديثة، وقام بالترجمة الأولى شوكت رادو وترغوت طوروس سنة 1970، وبعد خمس سنوات قام أوجمان بإعداد ترجمة ثانية. وتوالت بعد ذلك ترجمات أخرى كما نشر النص العثماني للرحلة لمرات متعددة.

---

(1) Unat,Faik Resit, *Osmanli Sefirleri ve sefaretnameleri*, Ankara, 1968, pp.57-58

(2) محمد راشد، **تاريخ راشد** (1660-1721)، الجزء الخامس، ص.ص 330-367.

(3) **سفارتنامهء فرانسه، أثرء محمد أفندي**، مطبعهء علميهء عثمانيه، إستانبول.

(4) **يكرمي سكز جلبي محمد أفندي، باريس سفارتنامه سي**، مطبعهء أبو الضياء.

غير أن ما يلاحظ على النشريات العثمانية والترجمات التركية ضعفها العلمي، فهي في مجملها غير محققة وتعج بالأخطاء.

وبالرغم من أن النص لم يتداول على المستوى العربي ولا نجد أية إشارات إليه عند كتاب الرحلة العرب الذين توافدوا على باريس، إلا أنه حظي في ظروف لا نعرفها وفي زمن غير دقيق بترجمة إلى اللغة العربية. وهو محفوظ بمكتبة (Houghton) بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية تحت رقم (MS Arab SM 191) وفي ميكروفيلم رقم 91 - 5462 . ويقع المخطوط في 78 صفحة من القطع الكبير. وكتب على ظهر المجلد عنوان بالفرنسية (Voyage de Mehmed Efendi à Paris). أما الصفحة المخطوطة الأولى (ص5) فتضمنت العنوان التالي: "في بيان ما ذكره محمد أفندي الإيلجي[1] المرسول من طرف الدولة العلية إلى فرنسا وما شاهده هناك"، وأردف هذا العنوان بما يلي:

(Traduction arabe de la relation de voyage en France de Mehmet Efendi ambassadeur de Turquie. (Non achevée))

وما يميز الترجمة العربية للنص ما يلي:

أولا - أنها أنجزت في تاريخ غير معلوم إذ يغيب تاريخ النسخ وتاريخ الإنجاز. كما أنها غير ممهورة لا بإسم المترجم ولا باسم الناسخ.

ثانيا - أنها لا تتضمن القسمين الأول والأخير من الرحلة، وكأن من قام بترجمتها لم يكن يهمه سوى الوصف الذي يقدمه السفير لفرنسا ولباريس على وجه الخصوص. وهي علاوة على ذلك مبتورة النهاية إذ يتوقف الناسخ بشكل فجائي عندما كان بصدد الحديث عن الحيوانات التي صادفها في (Chantilly).

ثالثا - أنها لا تحتوي على بعض المقاطع، فقد كان صاحبها ميالا إلى الحذف والتجاوز عن الترجمة باستعمال بعض العبارات التي تفيد الرغبة في عدم الإسهاب.

---

(1) إيلجي تعني السفير في اللغة العثمانية.

رابعا - استعمال الكلمات العامية والتراكيب اللغوية التركية.

لقد حرصنا على تحقيق هذا النص بالرغم من كثرة مثالبه، التي تجاوزناها بوضع هوامش مفصلة كلما دعت الضرورة لذلك، كما عملنا على مقارنة هذا النص بالنصين العثماني والفرنسي. وحاولنا تجاوز هذه الصعوبات أيضا عن طريق وضع ملاحق تسهل قراءة النص ومنها ملحق خاص عنوناه بـ "قبل الوصول إلى فرنسا" وملحق تحت عنوان "طريق العودة". وقد عمدنا في وضع هاذين الملحقين إلى ترجمة النص العثماني الذي نشره أوجمان، واستعننا في ذلك بالنص الفرنسي الذي نشره جيل فانستين باعتباره نصا شاملا.

* * *

"جنة الكفار" عنوانا

لا بد من الإشارة إلى أن كل السفارتنامه العثمانية لم تضع عناوين على عكس كتب الرحلات السفارية المغربية التي وضع مؤلفوها عناوين ألمعت إلى الغرض من السفارة وعكست تطور النظرة المغربية إلى أوروبا. وقد اكتفى كتاب السفارتنامه العثمانية بوضع عناوين عامة تارة تحمل اسم السفير وتارة تحمل اسم البلد الذي يعنيه التقرير السفاري. وقد نشر التقرير السفاري الذي نحن بصدده بعنوان "فرانجه سفارتنامه" (سفارتنامه فرنسا). بيد ان جيل فانشتين عندما نشر النص الفرنسي للرحلة وضعه تحت عنوان "**جنة الكفار**" الذي أصبح مع مرور الزمن لصيقا بالرحلة. وقد استند فانشتين على ما تردد في النص السفاري نفسه من عبارات تفيد أن باريس ومعالمها تعتبر جنة فوق الأرض من جهة، وعلى ما كان سائدا داخل الأوساط العثمانية من أن عالم القرن الثامن عشر هو جنة للكفار وجحيم للمسلمين. كما يعكس تداول هذا التعبير الأزمة العميقة التي أضحت تعاني منها الدولة العثمانية بعد الهزائم المتكررة والمعاهدات المذلة.

وقد استند تعبير الدنيا جنة الكفار وجحيم المسلمين على حديث نبوي يقول: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر". لا يهمنا في هذا الباب ما إذا كان

هذا الحديث ضعيفا أم صحيحا. كما لا تهمنا الشروحات التي قدمها الفقهاء لهذا الحديث ولا التعارض الموجود بينه وبين النص القرآني. ولكن الذي يهمنا أكثر هو تردد هذا الحديث بشكل كبير في الأوساط العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بتنويع يستبدل كلمة "السجن" بكلمة "الجحيم"، وتردد مثل هذا التعبير يشي في نظرنا بشعور بتفوق الغرب، وقد تزامن حضوره في النصوص السفارية كما في النصوص التاريخية العثمانية مع وصول معلومات عن أسلوب الحياة في الغرب والتقدم الذي تم تحقيقه في مجالات متعددة.

وكان تحديث الدولة والمجتمع، الذي سخرت لأجله الرحلات السفارية العثمانية، يعبر عن الرغبة في تحويل "جحيم" الدولة العثمانية إلى جنة...

* * *

بدأ اهتمامي بالمتون السفارية العثمانية منذ بداية العقد الأول من الألفية، عندما نشرت بحثا بعنوان «بين الرحلة السفارية والتقرير الديبلوماسي: السفارتنامه العثمانية»[1]، وفي سنة 2004 كانت مناسبة أخرى للمقارنة بين متنين سفاريين[2]: مغربي وعثماني من خلال حالتي محمد ابن عثمان المكناسي[3] وواصف أفندي[4]. وكنت قد شرعت في الاشتغال على نص سفارة محمد أفندي[5]

(1) عبد الرحيم بنحادة، "بين الرحلة السفارية والتقرير الديبلوماسي: السفارتنامه العثمانية"، ضمن: **التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000، صص. 103-125.

(2) عبد الرحيم بنحادة، "سفيران مسلمان في مدريد"، ضمن: **السفر في العالم الإسلامي، التواصل والحداثة**، تنسيق عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003، صص. 47-66.

(3) محمد بن عثمان المكناسي، **إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر النبي الحبيب**، تحقيق محمد بوكبوط، دار السويدي، 2003.

(4) نُشرت "سفارتنامه واصف أفندي" ضمن: أحمد جودت، **تاريخ جودت**، مطبعهء عثمانية، إستانبول، 1891، جلد رابع، صص. 348-358.

(5) نُشر النص العثماني للرحلة ثلاثة مرات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الأولى ضمن: محمد راشد، **تاريخ راشد**، مطبعهء عامره، استانبول، 1865، جلد خامس، صص. 330-367؛ والثانية نشرت

منذ سنة 2011، وكانت مفاجأتي سارة عندما ألقيت محاضرة في موضوع: «السفراء المسلمون في أوروبا» في جامعة الملك سعود في الرياض أثناء زيارتي لها سنة 2013، حيث تفضل الزميل والصديق حمد العنقري وأمدني بمخطوطة هي عبارة عن الترجمة العربية لنص «سفارتنامه محمد أفندي»[1]، فشرعت منذ ذلك الحين في الاشتغال على الصيغ الثلاثة للنص: الصيغة العثمانية-التركية والصيغة الفرنسية والصيغة العربية. وقد استقر الرأي على نشر النص العربي للرحلة وتحقيقه وتقديم دراسة مستفيضة له تبرز أهميته داخل النص الرحلي السفاري المسلم. وفوجئت ثانية بأن نص الرحلة نشره الزميل والصديق خالد زيادة تحت عنوان «جنة النساء والكافرين»[2]، غير أن اعتماده على النص الفرنسي في الترجمة من جهة[3]، وتشجيعه هو ما حدا بي لمواصلة الاشتغال على النص العربي وتقديمه لقراء لغة الضاد.

الدوحة، نوفمبر 2016.

تحت عنوان: **سفارتنامهء فرانسه، أثرء محمد أفندى**، مطبعهء علميهء عثمانيه، إستانبول، 1866؛ أما النشرة الثالثة فقد صدرت عن مطبعة أبو الضياء في إستانبول سنة 1889: **يكرمى سكز جلبى محمد أفندى باريس سفارتنامه سي**.

(1) وهي محفوظة بمكتبة جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية.

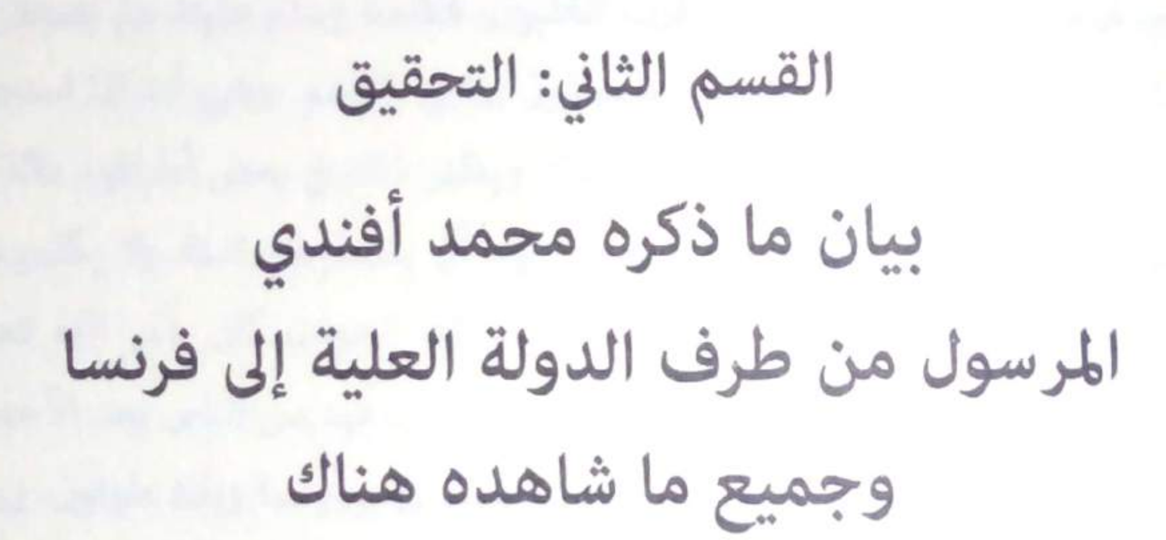
(2) محمد جلبي، **جنة النساء والكافرين**، ترجمة خالد زيادة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014، 154 ص.

(3) Mehmed Efendi, *Le paradis des infidèles, Un ambassadeur ottoman en France sous la Régence*, introduction et notes par Gilles Veinstein, Maspero, Paris,1981, 256 p.

بيان ما ذكره محمد افندى المرسول من طرف الدولة العليه
الى فرانسا وجميع ما شاهده هناك

قال انه فى اليوم الرابع من شهر ذى الحجه من شهور سنه ١١٣٢
اثنين وثلثين ومايه والف للهجره وهو يوم الاثنين
توجهت مسافراً فى الغليون الى نحو فرانسا وفى عشرين يوم
خلت من شهر محرم الحرام افتتاح سنه ١١٣٣ حصلت
الى مدينة طولون صبحية يوم الجمعه فى الغليون المذكور
نارمى مراسيه فى محل رمى المراسى مقابل تكية المرضى
ثم انه قوس عشرة مدافع سلام لاهل المدينه على القوانين
فردوا سلامه من الابراج بقواس ثلثماية مدفع ثم
بعد ذلك ارسل وكيل سردار البحر الينا قبطان فى الكشف
على الغليون والسؤال عن حال الركاب جميعًا ويهنينا
من قبله فى وصولنا بالسلامه حيث انه فى انتظارنا من يوم
الى يوم بوجل عظيم فوصل القبطان المذكور الى قرب الغليون
فكلمنا وسلم علينا ولم يصعد الى عندنا للغليون بسبب
بعض طرايق يتمسكون بها فى بلادهم وهى انه اذا استخود
على

الى ان بلغنا الى البستان. فهناك سلموا علينا.
بقواس عديد من المدافع. وفي حين دخولنا الى القصر
فالمتوكل على المدينة لاقانى الى اسفل الدرج وسلّم علىّ
بغاية الوداد وماكان يقربنى ولا يدنينى نحا فنذ من
الرايحة المذكورة اولاً ثم رجع الى مكانه. وفي الغد تشاوروا
كيف يسفروني الى باريس وتحققوا ان السفر في البحر كان
اسهل من البر فوقفوا لنا سبعة سفن عامرات على
شبه الشواطى الذى يسمونها الفرنساويين بلغتهم ترتانا
واعدوا في السفينة التى اختاروا نزولى فيها اوضة
خاصة على اسمى وزينوها وزخرفوها تزخرفاً كاملاً.
وعينوا قبطاناً خبيراً رييسو فيها. وفي عشرة ايام
خلون من شهر صفر المبارك نهار الاثنين نزلت الى
السفينة المذكورة. وسلمت قيادى للحق جلّ وعلا.
فبقينا تلك الليلة في البحر مقابلين البر وفي اليوم الثانى
هب علينا الريح ونشرنا القلوع. ونحو نصف الليل جينا
الى قرب البرج المسمى عندهم برج البوك رمينا الراسى



القسم الثاني: التحقيق

بيان ما ذكره محمد أفندي
المرسول من طرف الدولة العلية إلى فرنسا
وجميع ما شاهده هناك

قال إنه في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة من شهور سنة 1132 اثنين وثلاثين ومائة وألف للهجرة ، وهو يوم الاثنين، توجهت مسافرا في الغليون[1] إلى نحو فرنسا، وفي عشرين يوم خلت من شهر محرم الحرام افتتاح سنة 1133، وصلت إلى مدينة طولون صبيحة يوم الجمعة في الغليون المذكور، فأرمى مراسيه في محل رمي المراسي مقابل تكية[2] المرضى، ثم أنه قوس عشرة مدافع سلام لأهل المدينة على القوانين، فردوا سلامه من الأبراج بقواس ثلاثمائة مدفع، ثم بعد ذلك أرسل وكيل سردار البحر إلينا قبطان في الكشف عن الغليون والسؤال عن حال الركاب جميعا، ويهنئنا من قبله في وصولنا بالسلامة، حيث أنه في انتظارنا من يوم إلى يوم بوجل عظيم، فوصل القبطان المذكور إلى قرب الغليون، فكلمنا وسلم علينا، ولم يصعد إلى عندنا للغليون بسبب بعض طرائق يتمسكون بها في بلادهم. وهي أنه إذا استحوذ على بلاد فرنسا مرض من الأمراض الوبائية[3]، ويظهر ذلك في بعض أطرافها، فالذين يقدمون إليها من أقاليم أخرى لم يسمحوا لهم أن يعاملوهم البتة ولا يكلموهم إلا من بعد. وبهذا الخصوص حين وصولنا إلى تلك الجهات كان بأمر الله تعالى الطاعون في عزة كثرته في مدينة مرسيليا، وكان قد مات فيه من الناس بعد الأحصاء سبعة آلاف نفر[4]. ومن هناك فالمرض امتد وتوسع في بروونسا وبلاد طولون، ومن خوفهم أن ينفذ الداء والرائحة إلى داخل البلاد ويزداد، فكانوا يحترزون من ذلك،

---

(1) الغليون من اللغة الفرنسية (Galion) والتي تعني السفينة التجارية.

(2) يقصد هنا بالتكية الملجأ والمنزل الموقوف على الخير.

(3) يتعلق الأمر هنا بالوباء الذي استفحل في فرنسا من بداية خريف 1720 وعرف بطاعون مرسيليا الكبير وما أن بلغ شهر مارس من سنة 1721 حتى بدأت الحوليات الفرنسية تتحدث عما يزيد عن 400 حالة وفاة يوميا. وتظهر فظاعة هذا الوباء في فقدان مرسيليا أكثر من 40 بالمائة من ساكنتها، وكان على المدينة أن تنتظر أكثر من قرن من الزمان لتستعيد توازنها الديموغرافي. وهو ما أدى إلى قيام حركات اجتماعية كان لها الوقع الكبير في تاريخ فرنسا الحديث. يراجع:
Rebuffat (F), *Marseille, ville morte, la peste de 1720*, Marseille, 1968.

(4) لم يبالغ المؤلف عندما قدم هذا الرقم، فهو رقم هزيل إذا ما قورن بالأرقام التي يقدمها النص الفرنسي والذي يحدد عدد الضحايا بـ ثمانين ألف أو حتى مع الأرقام التي توردها الدراسات المعاصرة بناء على وثائق ، والتي تتحدد في 50.000. ينظر
Veinstein (Gilles), *Le paradis des infidèles, un ambassadeur ottoman en France sous la régence*, La decouvete, Paris, 2004, p.64.

ويحرجوا على الغرباء والواردين ويضعونهم في النزريت[1] أي الأربعينية بكل كمال، ويوقفوهم ويرضوهم ويكرموهم، لكنهم لا يخالطوهم بعض الأحيان عشرين يوما وأحيانا ثلاثين، لكن الأغلب في هذه الأيام أربعين يوما كاملة حتى تذهب رائحة الوباء منهم ماسكين بقول الحكماء. فمن أجل ذلك كانوا يأتوا لنا يسلموا علينا في الغليون من بعد.

وأما في المساء يأتون بالزاد والفواكه وبأصناف الشرابات والمربيات المفتخرة، وفي اليوم الثاني كان يوم السبت فحضرة المتوكل في مدينة طولون هو المتعين على حفظ عمارة البحر وقضاء أشغال الشعب، أتانا بذاته في قارب فقابلنا وسلم علينا، وهنأنا في الوصول بالخير واستعذر عن عدم اشتراكه معنا بالمخالطة والملامسة. وتوسل إلينا أن نسامحه ولا نؤاخذه بعدم قدومه إلى عندنا في المساء حال وصولنا، والمانع له هو اختلاف الطقس المتغير، ثم قال إنه هيأ لنا محلا غير بعيد من المدينة لننزل فيه. والمكان يدعى بستان السلطان.[2] وذكر أنه مأمور في ملاقاتنا وإكرامنا بغاية القبول[3]. فبعد رجوعه إلى البر أرسل لنا قاربه المذهب المزخرف، الذي كان أتانا فيه، فنزلنا فيه بعد الظهر وتوجهنا للميناء، فوجدنا كل المقدمين من العسكر في الميناء على شاطئ البحر متفرقين ومقتسمين، كل صنف على حاله، فهادونا كرامات وافرة، وقدمول لنا حصانين. فركبت أحدهما وركب الثاني ولدي، وذهبنا متوجهين مع الخدم والحشم والجوخدارية[4] إلى بستان

---

(1) هو تصحيف للفظة (Lazaret) الفرنسية نسبة لعازر الذي أقامه المسيح من الأموات، فأصبحت تدل على الحجر الصحي الذي يعرف في الفرنسية أيضا بـ (la quarantaine) أي الأربعينية أو في النصوص المغربية بالكرنطينة.

(2) في النص المنشور إستان السلطان، أما في النص الفرنسي فالمكان المشار إليه هو (Le Jardin du Roi) والذي يعتقد Veinstein أن المراد به هو البرج الملكي الموجود في (Mitre) في أطراف جزيرة (Mourillon)، انظر:

Veinstein, *op.cit*, p. 64, note 37.

(3) يقدم النص الفرنسي تفاصيل تغيب في النص التركي والترجمة العربية حيث يتحدث عن الأوامر الصادرة من باريس قبل شهر من وصوله إلى المشار إليه من أجل تخصيص استقبال لائق بمقامه. **المرجع السابق** ص. 64.

(4) في النص الفرنسي يسمى (Tchoadar) والمقصود بها (le laquais) أي حامل معطف.

السلطان المذكور، وكان جنود البحر لابسين اسلحتهم ماشيين مصطفين حولنا، وكذلك أصحاب نوبة البحر كانوا يلعبون في آلاتهم من طبل ونفير وصافور وغيره، كل جماعة على حدة بحالها. وعلى هذه الحالة كنا نسلك بين جم غفير قائمين على الجانبين إلى أن بلغنا البستان، فهناك سلموا علينا بقواس عديدة من المدافع.

وفي حين دخولنا إلى القصر، فخرج المتوكل على المدينة ولاقاني إلى أسفل الدرج وسلم علي بغاية الوداد، وما كان يقربني ولا يدنيني مخافة من الرائحة المذكورة أولا، ثم رجع إلى مكانه. وفي الغد تشاوروا كيف يسفرونني إلى باريس وتحققوا أن السفر في البحر كان أسهل من البر[1]، فوقعوا لنا سبعة سفن عامرات على شبه الشواطئ[2] الذي يسمونها الفرنساويين في لغتهم ترتانا[3]، وأعدوا لنا السفينة التي اختاروا نزولي فيها أوضة خاصة على اسمي وزينوها وزخرفوها تزخرفا كاملا وصمدوها صمدا كاملا يدهش العقول. وعينوا قبطانا خبيرا ريسوه فيها[4].

* * *

(1) يورد النص الفرنسي بعض التفاصيل المتعلقة بحيثيات اختيار السفر بحرا، فيشير إلى أن الطرق المؤدية إلى باريس كانت مغلقة بسبب الوباء، وأن إجراء تغيير السفر من البحر إلى البر تتطلب صدور قرار من باريس وهو ما يستدعي بدوره مدة زمنية طويلة. ويبدو من خلال الفقرات التي خصصت لهذا الأمر أن السفير العثماني كان متحفظا على القيام بالسفر بحرا.
المصدر السابق، ص. 66.

(2) لفظة دخيلة أصلها من القاموس الملاحي الإيطالي فهي تعريب لكلمة (Saettia) وقد حرفت الكلمة في كتابات عثمانية أخرى على نحو "شطية" وهي السفينة الصغيرة ذات السارين. ينظر:
Soucek, "Certain Types of Ships in Ottoman-Turkish Terminology", in *Turcica*, 1975, VIII, 232 - 249.

(3) وهي الرسم بالحروف العربية للكلمة الفرنسية (Tartane) التي يقصد بها السفينة، وتستعمل غالبا للصيد أو للتجارة المحاذية للشواطئ، وقد استعملت هذه التقنية للتواصل في البحر الأبيض المتوسط إلى نهاية القرن التاسع عشر.

(4) يمكن النص الفرنسي من الوقوف على معلومات إضافية لا يتضمنها غيره من النصوص، فقد ورد فيه أن عددا من التجار الفرنسيين والإنجليز في طولون تعذر عليهم السفر إلى باريس واضطروا البقاء في المدينة مدة تتراوح بين سبعة وثمانية أشهر، فاستعطفوا السفير العثماني في مصاحبته على ظهر السفينة التي تقله، ولما حصل على موافقة قائد السفينة ارتحل معه 15 نفرا منهم ومن بينهم ترجمان الملك (M. Fiennes) العائد من رحلة من الجزائر التي أوفد إليها من أجل التفاوض بشأن السلام مع ولاية الجزائر.
المصدر السابق، ص.67.

وفي عشرة أيام خلون من شهر صفر المبارك نهار الثلاثاء نزلت السفينة المذكورة، وسلمت قيادي للحق جل وعلا، فبقينا تلك الليلة في البحر مقابلين البر، وفي اليوم الثاني هبت علينا الريح، ونشرنا القلوع، ونحو نصف الليل جئنا إلى قرب البرج المسمى عندهم برج البوك[1]، فرمينا المراسي بسبب الريح المضاد الذي دفعنا لذلك المكان. فمكثنا أربعة أيام بلياليها، وفي ليلة الاثنين رفعنا المراسي وتوجهنا، فبلغنا بعون الله تعالى يوم الثلاثاء بعد الظهر بثلاث ساعات إلى مدينة ست، حيث أن وكيلها لما علم بقدومنا توجه إلى جانب قوفنا[2]، وهنأنا بالسلامة والوصول بالعافية، وعرض علينا صرايا ننزل بها كان وقعها لنا في المدينة المذكورة، وأنه بتلك الليلة بعينها كان متأهبا في تعيين أقواف لأجلنا لكي نسافر بالغد فيها، فبعدما أكرمنا عزمنا أن ننزل متوجهين. والمحل المرقوم في الأصل كانت جزيرة صغيرة بالقرب من مدينة مونبللير، بعيدة عنها تسعة أميال[3]، ولم يكن فيها شيء باق إلا كنيسة قديمة منهدمة، لأن ذلك الموضع كان مقسوما عن البر بعيد عن الناس ومهجور. والفرانساوية الذين يأخذون حذرهم من الطاعون أن ذلك المكان يكون لنا لأجل عمل الأربعينية.

وفي حين نزولنا في القوف المرقوم الموقع لنا، وصلنا إلى هذه الجزيرة بعد الظهر بثلاث ساعات، فلما رأيناها مهجورة خالية امتليت حيرة وغيظا وكثرت أفكاري للغاية كأني في لجة بحر، وبما أن الرجوع كان علي عسرا جدا، داويت نفسي بالصبر الجميل إلى أن انقضت الأربعين يوما هناك. وبعد انقضائها وتمامه فالبيك زاده[4] الذي كان مأمورا بمرافقتي ويذهب إلى باريس ما كان بها، فهذا أرسل وخبرني بما كان مرسوم عليه من قبل السلطان أنه سيقدم ليلح علي ويهنئني بوصولي بالسلامة، وأن في الغد أتوجه إن أمكنني النزول في السفية إلى

---

(1) يتعلق الأمر بـ(Bouc) وهو قرية صغيرة توجد عند مصب الرون.

(2) القوف في القاموس الملاحي هو القارب أو المركب الصغير.

(3) يشير النص الفرنسي أن هذا المكان هو الذي تم اختياره لقضاء الأربعينية.

(4) كلمة عثمانية مركبة من "بك" التي تعني السيد و"زاده" التي تفيد الإبن والمقصود بها أحد الأعيان.

موضع يسمى قرونتينيان لأنهم أعدوا لنا مكانا نستريح فيه ونتغدى، وأخبرني أيضا أنه سيقدم إلى ذلك الطرف ليتكلم معي، وأنه محقق عنده إكرامي إكراما لمن أرسلني، وسيقابلني بكل احترام واحتشام وإكرام كما ينبغي لقصاد الملوك المرسلين من طرفهم. فكان جوابي له: إن محل الإكرام وهو مناسب ولايق له.

وفي اليوم الثاني الذي هو السادس والعشرون من شهر ربيع الأول، يوم السبت، نزلت في القوف المرقوم وتوجهنا إلى قرونتينيان، فلما وصلناها حال خروجي من السفينة، وجدت عربابة حاضرة لأجلي، فركبتها إلى أن وصلنا إلى المكان المعين لنا، فإذا بالبيك زاده قادم بثياب مهيبة، فقدمنا له كل الإكرام الواجب حسب الممكن، فجلسنا على الكراسي وبدأ يكلمني ويقول هكذا: "إن سلطان فرنسا أستاذي ومولاي لما شعر في دخولكم السعيد إلى حكمه حتى أنه يظهر لجنابكم الشريف مقدار السرور الذي حدث عنده بسببكم، وقد أرسل عبدكم القائم على خدمة جلالته من ثلاثين قوناق[1] إلى استقبالكم لكي أهنئكم بوصولكم بالسلامة، فإن شاء الله تعالى تكون هذه الرسالة تقوية للمحبة الصادقة السالكة القديمة بين المملكتين. وتخصيصكم من الدولة إلى هذه المرتبة والوظيفة يزيدنا برهانا بذلك. وإني كذلك سأعمل كل جهدي بهذا الخصوص كيلا يخيب أملنا هذا."

وفي أثناء ذلك وضعت مائدة بمزيد من الإكرام من الحلاوات وأنواع المآكل الفاخرة المتكاثرة. وبعد أن أكلنا وجلسنا قليلا، جاء لزيارتنا قناصل المدينة المذكورة مع أعيان أهاليها وولاتها وصحبتهم الهدايا، وباركوا لنا في قدومنا وهنأوا بسلامتنا[2].

* * *

(1) "القوناق" كلمة تركية يراد بها المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم والمرحلة.

(2) يورد النص الفرنسي تفصيلا مهما حيث يقول: " وقد أعطى الملك أوامره بأن يزورني القناصل لتهنئتي بالقدوم في كل الأماكن التي أمر منها وأن يقدموا لي هدايا من فواكه ومربيات"، ص. 73.

الوصول إلى سيت

ثم بعد ذلك نزلنا في القوف وعزمنا على التوجه إلى نواحي سيت. وفي وصولنا إليها، وجدنا عراباية مرسولة لنا من مونبيلير من حضرة الأمير دوكاق[1] فطلعنا فيها حينئذ القلعة وسلموا علينا بقواس كل المدافع والجنود كذلك عليهم آلة السلاح مع قباطين المركب، وكانوا متفرقين في كل الأماكن من حيث كنا نمر حتى وصلنا إلى محلنا هكذا ماشيين في وسط الشعب. والصرايا التي كانوا عينوها لنا كانت مبنية على شكل خان عظيم لتكرير السكر. وصرفوا في بناء هذه الصرايا أموالا كثيرة ما ينوف على مائة ألف كيس. فهناك الأعيان وضابطو الولاية هنئونا وأظهروا لنا البشاشة والسرور العظيم في قدومنا بالسلامة، ومكثنا هناك جملة أيام.

وبعد برهة من الزمان كانت الناس منهم تأتي عشر وخمسة عشرة وعشرون وثلاثون جملة واحدة، ما قطعوا عن المجيء حتى إلى مضي خمسة ساعات من الليل[2]. ومن مونبللير وأطراف أخرى كانت تأتي بعض نسوة من أشرافهم لتشوفنا، لأن في مملكة فرنسا إكرام النساء غالب على إكرام الرجال، وكل واحدة منهن تعمل ما تشاء ويختار خاطرها وتمضي إلى حيث تشتهي وتريد. وعلى هذه الطريقة أكبر شيخ منهم يراعى ويحترم لأدنى حرمه بأكثر ما تستحقه. وفي تلك الولاية الحكم للنساء[3].

ولما كان الغد، لما أشرقت الشمس رجعنا إلى القوف، وعزمنا بالتوجه إلى جانب المقصود في القنال[4]، فهذا الذي يسمونه بالقنال هو نهر محصور تجتمع فيه المياه من تلك الأطراف، فقيل إن قبل أن عملهم هذا القنال في القديم كان

---

(1) يتعلق الأمر بالدوق (Roquelaure) كما هو واضح في الصيغة الفرنسية للرحلة وكان حاكما على (Languedoc) وقد ولد سنة 1656 وتوفي سنة 1738.

(2) يقصد الساعة الخامسة بعد غروب الشمس كما هو منصوص عليه في النص الفرنسي.

(3) يردف النص الفرنسي القول إن فرنسا كانت جنة النساء، إذ يقول: "ويقال أن فرنسا كانت جنتهم، لأنهن يعشن متحررات من كل المتاعب، وكل ما يرغبن فيه يحققنه بسهولة". ص. 74

(4) يقصد بالقنال هنا (Le canal de Languedoc) الذي يعرف أيضا بـ (Le canal de Midi).

أرباب التجارة وأبناء السبيل ملتزمين أن يسافروا في البحر، فكان يحصل لهم مشقة ومصاريف كثيرة مع طول سفر وكثرة خطر، وبعد زمان مديد من قبل ذلك أحدثوا هذا القنال حتى يسهل إلى أبناء السبيل والتجار وغيرهم، وأنفقوا على عمله أموالا لا تحصى لكثرتها، لأنه لا يخفى ما في ذلك من قصر المدة والمسافة وسهولة أشغال الناس، ومن كثرة هؤلاء التجار وغيرهم كان يدخل السلطان أموال ميرية كثيرة من باج وغيره على قوانينهم، والآن من البحر الأبيض المتوسط يسافرون إلى البحر المحيط بين المدن والقرى من غير أن يضعوا أرجلهم في البر. والنفع الذي يحصل للسلطنة من هذا القنال، وقد ظهر، زائد على الحد جدا عن المأمول، ولكن النفقات المصروفة على القنال المذكور كثيرة للغاية. وقد جاوز بعد ضبطه على وجه المظنة مقدار ثلاثة آلاف كيس معلومة لأن بناءه كان ضروريا للغاية لأن لا يخفى أن بناءهم له متين عظيم، وبنوا فيه بنايات من حيث أنه جبل منطورس[1] كان على جبل أغد[2] طوله مائة وعشرون دراعا، وكان غير ممكن أن المرء يطلع إلى هذا الجبل الموضع المرتفع، فعملوا حواصل[3] من حجارة كبار منحوتة، بما أنه كان غير ممكن عبور المراكب وطلوعها إلى هذا العلو المرتفع، وكل واحد منها يسع ثلاثة أقواف أو أربعة في داخل الحجر المنحوت وبناؤها الواحد في طرف الآخر على شكل الدرج. وكان لكل واحد منها بابان للدخول والخروج، وحين دخول القوف للحاصل المذكور كانوا يغلقون الباب الأسفل ويقفلونه، والباب الآخر الذي قدام كانت له كوتان، ولكل واحد ملزمه. فهذا الباب كان يمنع كالسد يمنع جريان الماء التي كانت مرتفعة عن المكان المذكور الذي فيه القوف أكثر من عشرة أدرج. ولما كانوا يفتحون الملزمتين كانت تنحدر المياه في الحاصل وبأقل من ربع ساعة كان يمتلئ الحاصل من الماء ويرتفع القوف على وجه الماء المذكور ويفتحوا الباب التي قدام، فكان يدخل فيه القوف

---

(1) ويقصد ممر نوروز (Le col de Naurouze).

(2) في النص المنشور نقرأ نهر الأغد وليس جبل أغد، ولعله يريد نهر هيرو (L'herault) الذي يجري بالقرب من مدينة (Agde).

(3) الحواصل هي الترع (Les écluses).

مثل الأول. ولهم عادة أنهم يربطوا القوف بحبل ويجره بغلان أو ثلاثة في القنال المذكور، وهكذا على هذا الأسلوب يمكنهم أن يدخلوا الثمانين حاصل ويخرجوا منها حتى أنهم يبلغوا أخيرا هذا الجبل المذكور منطورس، وحين بلوغهم إلى هناك يتركوا الصعود ويبدأوا في النزول ويدخلوا في أربعة وعشرين حاصلا حتى أنهم ينتهوا إلى مدينة تولوظ.

وهناك توجد الأنهر الكثيرة وتتفرق في البلاد فتتلاقى في هذا القنال التي هي ممكن أن يمسك جريان الماء فيه فيقسمون ويردون مياه هذه الأنهار لتلك الديار بآلات معلومة من متاريس وغيرها ميمنة وميسرة بحيث لا يحصل للقنال ضرر.

وبحيث أنه يوجد بعض أنهر عميقة وأماكن منها سفلية عن هذا القنال فجعلوا دورا عديدة تجري من فوقها المياه من غير أنها تختلط بتلك الأنهر. والأقواف التي تأتي وتذهب فيه تمر من فوق هذه الجسور مع أن أحيانا يكون جاريا من تحتها نهر آخر.

وكذلك يوجد في طريق هذا القنال جبل عال معارض له وما وجدوا له حيلة إلا أنهم التزموا وثقبوا الجبل كله في وسطه بهمة عظيمة غير موصوفة الصنع فجعلوها قنالا مقببة من حجارة منقورة طويلة مقدارها مائتي دراع، وفيها تسلك الأقواف من بطن الجبل المذكور، ولكن عملهم لذلك التزموا أن يقطعوا السبيل في أماكن عديدة يمينا وشمالا، إلا أنهم عادوا وسلكوا بصنعهم الجسور العالية مع القناطر الواسعة للغاية كذلك والدواب والمواشي والكارية وعابري السبيل تمشي وتقطع على ذلك السفن من تحتها مارة، ويظهر من ذلك جميعه النفقات والمصاريف جميعها الوافرة المصروفة في هذا القنال[1].

وفي المساء المذكور جئنا للمدينة المزبورة، أغد، وقطعنا هناك في حاصل، وفي خروجنا من القوف دخلنا إلى مدينة ونزلنا في الموضع الذي حضروه لنا. وفي

---

(1) يضيف النص الفرنسي تفصيلا يشبه التعليق على هذا الوصف فيقول: "إنه يستحق أن يعد ضمن عجائب الدنيا ويجب على المرء أن يشاهد قبل الكتابة عنه أو الحديث عليه"، انظر ص. 76.

صباح ذلك الليل نزلنا أيضا في القوف، وهكذا كنا نسافر ونعدي على الجسورة المذكورة وننزل كل ليلة في بعض القصبات والقرى إلى أن وصلنا أخيرا إلى طولوظ في رابع شهر ربيع الآخر.

وحين كنا نعدي على القنال كان كثير من الناس يشتاقوا النظر إلينا، فمنهم من كان يأتي من بعد مسافة أربعة ساعات أو خمسة من الأماكن المحيطة، ويتأملوا فينا من حافة القنال، وأحيانا من زود ازدحامهم يكونون على بعضهم بعضا، وكان يقع منهم بعض أنفار في المياه[1]. ونهر القنال في عبوره يقع على مدينة طولوظ يصب في نهر آخر هناك يسموه غارون وفي ذلك الحد ينتهي. وبما أنه تستعمل في نهر الغارون أقواف غير التي في القنال لزمنا أن نقيم في تولوز ثلاثة أيام إلى حينما نقلوا حوائجنا كلها من فوق القنال، ثم في اليوم الرابع سافرنا إلى سلالم الميناء بعز وإكرام عظيم وركبنا السفينة في نهر الغارون ومن قناق إلى قناق وصلنا إلى بوردو في نهار السبت.

* * *

بوردو وضاحيتها

وفي وصولنا إلى طولوز طلعنا من القوف، وركبنا العرابابة، وتوجهنا إلى محلنا. أما مدينة طولوز فهي كبيرة للغاية، ولكن بعض أطرافها خراب لأنها غير مقصودة في التجارة فلأجل ذلك شعبها قليل، إلا أنها مدينة ذات سمعة في بلادهم ومعتبرة للغاية[2]، وكان من تلك العامة فريق جنود وقبطانين من

---

(1) يضيف النص الفرنسي بعض التفاصيل في هذا الباب فيقول: عندما وصلنا إلى مدينة يسمونها بوا (ولعلها Ariege) كان على الضفاف جمهور غفير إلى درجة أن الجنود كانوا يدفعون الناس الذين لا يجدون مكانا للتراجع، وقد قتل أحدهم رجلا بضربة حربة، وقد اندفع أخ القتيل بتهور باكيا، فضربه الجندي نفسه وسبب له جروحا مات على إثرها"، ص.76.

(2) يورد النص الفرنسي بعض التفاصيل المتعلقة بمدينة تولوز فيذكر عدم إيفاد جند لها من قبل الملك الفرنسي. ولهذا لم يصحبه إليها من كان معه من الخمسين عسكريا من الذين رافقوه منذ وصوله إلى طولون إذ رافقه جند المدينة إلى حيث يوجد منزله. كما يشير النص إلى أن المدينة كانت تحتضن برلمان بروفانس وأن رئيس هذا البرلمان لم يأت لزيارته غير أنه أوفد إليه ابنته وزوجته، كما يشير إلى أن الصراع كان محتدما بين رئيس البرلمان المذكور وحاكم بروفانس وهو ما دفع حاكم بروفانس إلى اتخاذ مونبيليي مقرا لإقامته عوض تولوز.

القلعة جنود كانوا سبقونا حتى طلعنا إلى محل حاكمها بعراضة عظيمة وبلغونا إلى محلنا لكن لم أر في كل سفري هناك جميعه قط في كل المدن التي دخلناها مثل مدينة بوردو في بنائها وتكوينها وفي طبع أهلها وسكانها، لأنها مدينة حسنة للغاية ومبنية في مكان لائق للغاية، وشعبها غفير وصاحب أدب. ونهر الغارون هذا يمتد بهذا المقدار أمام المدينة في اتساعه حتى أن مينتها تشبه مينة القسطنطينية. وثغر البحر المحيط ليس بعيداً عنها سوى عشرين ساعة ومنه تأتي الغلايين إلى هذه المينا وهناك ترمي مرساها بالمدينة مع أنها أقواف كبار أكثرها من أربعين مدفعاً.

ولما وصلنا إلى ذلك المكان كان في المينا نحو خمسماية وستماية قوف غلاوين[(1)] مع شواطئ من بحر المحيط وزيادته ونقصانه وعلى قدومه ورجوعه، وصار لنا بذلك سرور زائد لأننا كنا سابقاً سمعنا عنه، ولكن ما كنا رأيناه قط لأنه يزيد وينقص كل أربع وعشرين ساعة مرتين، فأما نقصانه فإنه يدوم خمس ساعات وزيادته سبع ساعات. ففي الزيادة يمد على بوردو أي يفيض إلى ورائها مسافة أربع وخمس ساعات. فأما مياه نهر الغارون فوقت جزر البحر تسكب وتجري بعزم زائد إلى نحو البحر المحيط. وأنا قد رأيت بعيني الغارون يفيض على علو ذراع واحد ومثله يهبط ذراع آخر والأقواف التي توجد قريبة من شاطئ البحر في أوان الجزر تمكث على اليابس ولما يفيض المد ترتفع على المياه مثل السابق حتى أن الأقواف الذاهبة والواردة تنتظر أوان المد والجزر لكي تسافر بقوة هذه الحركة ومن لم ير بعينه فلا يصدق لأن هذا شيء بقدرة الله عز وجل.

أما أهالي هذه المدينة فكان أكثرهم لما يقدمون إلى عندنا يزيدونا رغبة في فرجة القلعة أخيراً، تنازلنا إلى عزيمتهم (دعوتهم) وذهبنا معهم إلى القلعة لكي نتفرج، فرأيناها قامة جميلة جداً وواجبة الفرجة لأنها معمرة خارج المدينة على شاطيء النهر عمارة تدهش الناظر والعقل من حسن بنائها وهي متينة جداً. وفي بلوغنا إليها سلموا علينا بمدافع بغير عدد.

---

(1) الغلايين والغلاوين جمع "غليون" للمركب السابق ذكره.

ولما دخلنا إلى داخل القلعة[1] أخذونا إلى دار حاكمها. وهي دار جميلة جداً وهناك إستان على سطح القلعة، وكان هناك بستان على ظاهر القلعة وفيه كوجك[2] معمور يكشف على سائر المدينة وميتها، فدخلنا نمشي فيه ونتأمل معانيه، فإذا هو مثقون الوصف والظرف. وكان الحاكم المذكور ذو خبرة وبصارة في الزهزر وغرسها، وكان يربيها ويحفظها، وكان ربى زهور لاله، ومنها أربع كانت مفتحة زهرها. وكذلك بعد وصولنا إلى طولون، كان الناس يهادونا زهورا ربيعية في كل مطرح كنا ندخله من أنواع الزهورات في فصل الربيع كالزنبق والبنفسج وغيره.

بعدما تنزهنا في البستان المذكور أخذونا إلى أوضة كانت مزينة بأنواع الدهنات الملونات والتصاوير الممنوعات وجوها وأجساما فمنها ما يشبه وجه الملاك، فحضر قايد العسكر بريك[3] الذي كان في تلك الأوضة، فلما رآنا قام وأتانا، وترحب بي وسلم علي وأكرمني بكامل الإكرام ومزيد الإنعام، فشربنا معه القهوة وأنواع الشرابات، وأكلنا أنواع المربيات التي كانوا قد أعدوها لنا. فبعد ذلك حضرة القائد ترجى عندي وتوسل بحياتي أني لا أؤاخذه إن كان نقص من إكرامي شيء، فأجبته أني شاكرا له على ما بدا منه من الإكرام وما قدمه لنا من مزيد الإنعام والقيام ثم رجعت إلى مكاني.

والقائد المرقوم الذي في طول عمره ما رأى المسلمين كان له اشتياق زايد في رؤيانا، ولكن درجته ورتبته ما كانت تسعفه أن يأتي إلى عندنا، ومن مزيد ظنه أننا لا نروح إذا عزمنا توقف في عزيمتنا، إلا أن القلعة كان الدخول إليها ما هو مسموح كثيرا ولا لواحد مثلنا لكن حال وجودي إلجي يلزم أنهم يعملون لي إكراما يليق

(1) يتميز النص الفرنسي بإيراد تفاصيل عن شروط وظروف زيارة القلعة عندما ذكر أن السفير منعته الثلوج من القيام بالزيارة قبلا وأنه كان هو الذي يرغب في زيارتها. ص.80-81.

(2) والصواب "كوشك"، وهي كلمة تركية تعني القصر الصغير، ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية (Kioske) والكلمة العربية "جوسق" غير أنهما لا تعنيان الكوشك.

(3) يقصد الدوق دي برويك (J. Duc De Berwick) وهو إبن ملك انكلترة جاك الثاني، ولد في لندن سنة 1670 وتوفي سنة 1734 بعد أن قدم خدمات للعرش الفرنسي وتقلد في مناصب سامية كان آخرها توليه قيادة الجيش الفرنسي في جهات مختلفة.

بالإلجي. والحال أنها حصلت اتفاقية، فذهب للقلعة فاجتمعنا، وهذا كان هو السبب الحقيقي أني توجهت إلى هناك فمكثنا في بردو ثلاثة أيام.

* * *

الوصول إلى بلوا

وفي سحر ثالث ليلة نزلنا من القوف وعزمنا على التوجه إلى نواحي بلوا، ولما وصلنا نزلنا للبر من القوف وشاهدنا اثنى عشر يدكا[1] أتى إلينا بها بأمر السلطان، أحدهم مرسولا من طرف السرخور، وكانت جميعها عليها أنواع الرخوت[2] وعدد السلطان، وواحد منهم كان حاملا رختا كان من الذهب المرصع بالجواهر، وكان معهم أيضا عربابة[3]، وكان البرد زايدا في ذلك الوقت في بلادهم، فما استطعت أن أتأخر، واستشرت في ذاتي كيف العمل في تلك الدقيقة ولأجل ذلك حالا طلعت في العربابة وقصدنا المحل صحبة أناس وعز عظيم.

ولكن مع دخولنا هذا كان مهيئا لنا عراضة عظيمة بعز وشأن وأي شأن ثم رفقة ناس ذوي احترام وجند وعساكر ونوبات وعدد وإكرام وأي إكرام. فأما الناس المرسلون حتى يرافقونا ويمضوا بنا إلى باريس فكانوا مقيمين في هذه المدينة في انتظارنا مع جملة لوازم السفر، وحتى إلى هذه المدينة كذلك كان سفرنا في الماء.[4] ومن ثمة تركناها وراءنا حيث كنا في التنزيه في القصور والمساكن العالية وغيرها.

---

(1) أرسل المسؤلون الفرنسيون إلى (Balaye) من أجل استقبال السفير تحت رئاسة (Cognard) عددا كبيرا من العربات والكراسي و98 من الخيول و10 من خيل إسطبل الملك للسفير ولحاشيته.

Veinstein, p.82.

(2) الرخوت جمع رخت وهي عدة الخيل وحليها.

(3) يورد النص الفرنسي أن السفير خير بين ركوب الخيل وركوب العربة فاختار ركوب العربة لشدة البرد.

(4) يذكر السفير في النص الفرنسي أنه عانى وحاشيته من ركوب البحر وفي هذا الباب ينقل ما دار بينه وبين مستقبليه حول الظروف المناخية التي يمكن أن نعرقل السير على الطريق البري.

Veinstein, p.82.

وفي يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الآخر وجدنا[1] في طريقنا صراية السلطان[2] مبنية في مكان مفرح وكاشفة على البلاد. وفي هذه الصرايا[3] موجود ست قباب ما رأيت لها شبها إلا للمباخر الفضية المخرقة المنقوشة لحسن

---

(1) يقفز النص التركي والعربي على فقرات عدة في النص الفرنسي يقف السفير عند مختلف المواقع التي شاهدها في الطريق كـ (Petitmort) وهي تخريف لـ (Petit -Niort) و(Pons) التي تبعد عن سابقتها بأربع ساعات و(Xaintes) التي غادرها في اتجاه Saint Jen D'Angely التي تبعد عن قرية (Berjou) بأربع ساعات، وهذه الأخيرة هي تحريف لقرية (Brioux - sur - Boutonne) ومنها إلى مدينة (Lusignan) القريبة من مدينة بواتيه (Poitier). وأهم ما يشير إليه في هذه الفقرات هو صعوبة الطريق وعدم تجهيزها لتكون قابلة للعبور خلال فصل الشتاء:

Je ne saurai dire ce que nous essuyâmes de peine, nous nous rencontrions à faire un voyage de terre dans l'hiver, nous avions des chemins impraticables, les carrosses étaient surchargés, mes gens fort mal montés, et ensuite, par surcroit d'infortune, très mal logés.

وقد كان لهذا الوضع دور كبير في التأخر في الوصول فقد اضطر البقاء في (Xaintes) في انتظار العربات التي تحمل الأمتعة والتي تأخرت بسبب أعطاب ناتجة عن الوحل.

Veinstein, p. 84.

غير أن أهم وصف هو ذاك الذي يقدمه لمدينة بواتييه (Poitiers) يقول:

"ومدينة بواتيه محاطة بأسوار غير أن قصرها خرب بفعل الزمن ولا توجد بها بنايات جميلة وكل ما رأيت بيوت عادية، وليس بها نبلاء وغالبية سكانها فقراء. وقد ابتهجوا بوصولي إلى المدينة، وقد اصطف من بها من الجند لاستقبالي من خارج الأسوار إلى مقر إقامتي.

ومن كل المدن والقلاع التي كنت أعبرها كنت أرى أفواج من الجنود أمامي. وعندما كنت أصل إلى المدينة كانوا يحيطون ويسيرون بي إلى مقر إقامتي حيث أجد أكابر البلد والقناصل الذين قدموا لتهنئتي بوصولي السعيد حاملين الفواكه والمربيات"

ويستغل محمد أفندي كل المناسبات ليذكر بالإقبال على زيارته من قبل سكان المدينة، وقد أثارته المرة ظاهرة من يكرر الزيارة لمرتين أو ثلاثة مرات، وأوضح أن البرد القارس وتهاطل الأمطار لم تمنع هؤلاء من الانتظار إلى غاية الثالثة صباحا. "ولا يمكن للمرء أن يتصور كيف كنت معجبا بهذا الفضول الكبير".

(2) إن القصر الذي يقصده هنا - إذا ما قارننا الصيغتين العربية/التركية والفرنسية هو القصر الموجود غير بعيد عن (saint Laurent) يقول النص الفرنسي:

Le lendemain matin je gagnai un petit village appelé Saint Laurent. A moitié chemin est un palais royal, bâti dans un lieu de délices. Sa construction ressemble à un encensoir à six dômes et les ouvrages de sculpture à ceux de nos montres de table. C'est Francois 1er qui l'a fait bâtir….

(3) بقصد هنا قصر بلوا (Le Chateau de Blois) ويعتبر هذا القصر من أفخم قصور فرنسا خلال الحقبة الحديثة، فقد تم بناؤه خلال القرن العاشر الميلادي، وعندما زاره محمد أفندي كان يجمع بين جدرانه تاريخ الفن المعماري الفرنسي وإن كان يعاني من الإهمال، فالقصر لم يعد يجتذب لويس الرابع عشر فأهمله وتم تخريبه زمن لويس السادس عشر وتم نهبه خلال الثورة الفرنسية باعتباره يمثل رمزا للنظام البائد. ولم يعد الاعتبار لهذا القصر إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر عندما تم اعتماده تراثا معماريا تاريخيا فعني به عن طريق ترميمه وإصلاحه.

صنعها، وتشبه أوجه الساعات التي عندنا في إتقانها. فهذه الصرايا قد بقيت من عهد السلطان فرنسيس الأول[1] المشهور عندهم بهذا الإسم بين السلاطين المعلومين بفرنسا. وهي مخصوصة بقوانين السلطان. إلا أن أفصح لسان وأقوى جنان من البشر لم يقدر يصف حسن هذه السراية ولا منتزهاتها لأنها فريدة وغير ممكن وصف ما رأيت داخل هذه السراية من الحركات التي لم يتصورها العقل ومن دواليب الماء ومن السواقي العجيبة والأشجار المقصوصة التي كل واحدة منها تشبه شكلا، فمنها ما هو على شكل خيام ومنها على شكل أوضة وشكل خيل عليهم ركاب وما أقدر أصف ما رأيت.[2]

* * *

الوصول إلى باريس

ومن هناك[3] انتقلنا إلى أورليان يوما واحدا. وهذه المدينة بعيدة عن باريس عشرين ساعة، وبما أنها في مكان الأمان لم يعتنوا في حفظها ولا في عمارتها ولا حفظ قلعتها. فرأينا هناك جزءاً من عسكر السلطان مشينا في هذه المدينة. فهذا العسكر لما اقبلنا خرج إلى استقبالنا مسافة ساعة بعيداً عن البلد والجنود كلهم واقفون بصفوف منظمة الأشكال إلى حد المدينة وكل أهالي المدينة مع الأعيان أيضاً اجتمعوا لكي يرونا ويسلموا علينا مثل ما كان يحدث في بقية البلدان التي مررنا بها.

---

(1) فرانسوا الأول الذي حكم ما بين 1515 و1547.

(2) عندما يستعمل النص العربي والتركي هذه العبارات فإنها في الغالب إشارة إلى التجاوز عن العديد من القضايا التي تعرض لها بالوصف وتظهر في الصيغة الفرنسية. فالرحالة يذكر بعض التفاصيل المتعلقة بالشخص الذي رافقه من بوردو. كما يتجاوز عن وصف بعض القرى التي مر منها وفيها مثلا (Chatelle rouilt) وهي قلعة معروفة كما يقول بصناعة السكاكين، كما يعرض لـ (D'Amboise) التي كانت -يقول عنها- مقر إقامة ملوك فرنسا حيث يشير إلى القصر والقلعة الموجودين بها.
ولا يفوته أن يعرض للأنهار حيث يقف واصفا نهر اللوار الذي تحيط بجنباته قرى آهلة بالسكان. ومن نهر اللوار يصف قصرا رائعا مع حديقته جميلة ويذكر أن هذا القصر كان في السابق في ملك خازن ملك ألمانيا. كما يلاحظ أنه بدءا من (Poitiers) "أصبح يرى على طريقه قرى جميلة ببيوت رائعة".
Veinstein, p.86-87.

(3) يقصد (Saint Laurent) ويذكر أنه قطع المسافة في ظرف ست ساعات.

ولما وصلنا انزلونا في مكان معين لنا وهو سراية مكلفة، وكانت هذه السراية مزينة بأنواع التصاوير والنقوش، وهي أشخاص جميلة مثل شبه الملائكة وشبه نساء جميلات وسائر الطيور والوحوش بأكمل هيئة وهي مصمودة بأنواع الفرش الجميل تشبه أوض أهل الصحبة[(1)] الأعلى. فاستقمنا في أورله نس يوماً واحداً.

وفي الغد[2] سافرنا إلى أن وصلنا صراية باريس قريبة منه كانوا أعدوها لنزولنا فيها. وذلك في تسعة من جمادى الأول يوم السبت، فاستقمنا هناك يوما واحدا، ولكن لم أستطع أن أشرح كثرة الناس والازدحام حين قدومنا إليها لملاقاتنا من خواص أكابرها وأعيانها، فمنهم من كان يأتي بالسترة، ومنهم من يأتي ظاهرا. وما رأيت قط مثل تلك القلعة ولا مثيل بيوتها، لأنه من شدة نظامها كأن العرس قايم فيها.

وعلمت أن الفرانساوية عندهم عادة خصوصية يسموا صاحبها مدخل القصاد وهي شبيهة عندنا بقبوجيلر كهياسي[3]، وهذه رتبتها: أنه حيث يبلغ القاصد إلى عند الدولة المذكورة ويطلب الدخول عند السلطان فيذهب يهنيه (يرحب به) بنفسه ويرافقه في دخوله ويأخذه إلى عند السلطان.

فهذا المدخل جاء إلى عندي لينظرني في ثاني يوم بعد وصولي إلى الصرايا لكي يأتيني من طرف السلطان إعزازا وإكراما. فرجع أيضا إلى عندي بعد مضي يومين لأجل أنه يعلمني أن يوم الأحد القادم وقت الظهر يكون دخولي إلى باريس.

وفي ذلك المحل وقعوا لنا منزلا ومع هذا أن بيارق الجند مزينة مصطفة ألايا مستعدة لأجل سلامي وتهنية السلامة بالعز والإكرام. ثم عرفني المذكور أن بعدما تعين أولا سردار عسكر فرنسا لأجل مرافقتي إلى طرف السلطان، لكنه

---

(1) يريد بأهل الصحبة الأعيان وحاشية الملك.

(2) في النص الفرنسي وقبل أن يصل إلى باريس يعرض السفير لوصف القرى التي مر بها ومنها (Touri) و(Bourg d'Etampes) الذي "يستحق أن يسمى مدينة والذي تحيط به بساتين وكروم وأراضي خصبة تجعله بحق مخزن باريس" إلى أن يصل إلى قنطرة على نهر السين حيث قلعة (Charenton) التي تبعد عن القصر الذي سيقيم به في باريس بساعة واحدة ووصل هناك في يوم السبت 9 جمادى الأولى.

(3) ومعناها في القاموس السياسي العثماني كبير البوابين أي كبير الحجاب. وكان وقتئذ المكلف بهذه الوظيفة (Le Sr. Remond) وهو ابن شخصية فرنسية عرفت بـ (Remond Le Diable).

بسبب وظيفته في ترتيب نظام السلطان وكبر سنه وهبوط قوته لم يكن يستطيع ركوب الخيل. وأن موضعه كان تعين القائد الثاني المسمى دستوس[1]، وهذا القائد يوم الأحد قبل الظهر سيأتي لأخذكم في عرابابة من عرابايات السلطان وتذهب معه.

فلما كان الغد جاء أحد مسعفي المدخل، ووظيفته أن يرتب دخولي، فهذا سألني عن عدد أرفاقي وركاب الخيل[2] لكي يأتي بالخيل من اصطبل السلطان، فعرفته عددهم حسب سؤاله، فبعده جاء الأمير آخور[3] المعلوم اسمه موسوكونيا[4] فرتب وحضر المطلوب. وبعد وصول القائد دستوس ومدخل القصاد في عرابابة السلطان، نهضت وتمشيت إلى بين أيديهم لزيارة إكرامهم، وهما عرفاني أن أرسلت إلي عرابابة السلطان بعينها، كما كان أيضا أرباب الدولة المتقدمة ترسل عرابايات من طرفها لإكرامنا.

وفي ذلك الوقت رأيت مقبلا على عرابابة واحدة مزينة كلها بالزينة الوافرة الجميلة فركبت تلك العربابة التي لم أجد مثلها قط ولا مثل زينتها، فحينئذ اصطف الالاي ورفعوا بيرق السلطان على الخيل يسبق وكانت خيالة الملك تلعب في الميدان وبعده أرفاقي أيضا كانوا ركابا يلعبون معهم على الخيل، وكان الألاي منظوما على هذا الشكل، فمنهم ناس كانوا لابسين الأكراك المنوعة وفي أيديهم طبنجات، ومنهم من كانوا متسربلين بالعبي الملاح في شكل غريب

---

(1) هو اسم مصحف، وهو في الواقع يريد المريشال ديستري (Le Marechal D'Estrees)، وهو فيكتور ماري ديستريس عاش ما بين 1660 و1737، وكان من كبار العسكريين في فرنسا القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كانت له مشاركات مهمة في الحروب ضد إسبانيا وولايات الشمال الإفريقي، عين مريشال سنة 1703 وأصبح دوقا سنة 1723، وفي الوقت الذي زار فيه محمد أفندي باريس كان عضوا في مجلس الوصاية.

(2) يعطي النص الفرنسي في هذا الباب بعض التداعيات حيث يذكر أن السفير اصطحب معه 5 خيول وأنه لم تكن الحاجة لإضافة اثنين.

(3) المقصود بـ "الأمير آخور" الموكل على الإسطبلات الملكية.

(4) تم تحريف الإسم في النص ولعل المقصود هنا كما جاء في النص الفرنسي (M. Cognard) وهو أحد المسؤولين على الأسطبل الملكي، ينظر،

Veinstein, p. 92.

وهم ماسكون في أيديهم الرماح، وفي أثرهم الأغاوات الملتحية، وكان لاحقهم امامي قبوجيلر كتخداسى، وخلفهم كان مقبل ابني مع كتخدا بيك، وعقب هؤلاء كانوا مقبلين ستة من الخيل الجياد المزينين بأنواع الزينة. وورائهم كان ترجمان السلطان مع سرآخور، ثم أني لحقتهم بلبس طويل مهيب، راكب على حصان بعدة غالية، وعربابة السلطان بجانبي لأنني كنت خرجت منها لكي يراني الخلق، وكان على يميني القائد دستوس وعلى شمالي مدخل القصاد راكبين خيلهم. وفي آخر الكل تبعنا بيرق آخر من الخيالة وورائهم العرابايات بعضها يتلو بعض على المراتب المعلومة. فعلى ذلك أسواق المدينة بهذا المقدار واسعة للغاية لسعتها الستة عرابايات الجارية فيها على السواء.

وفي وقت دخولي لتلك المدينة فالشعب الذين قدموا من كل جهاتها ليرونا كانوا بهذا المقدار جما غفيرا وافرا حتى أن في بعض المحلات والحارات كنا نجهد أنفسنا في الدخول والمرور أحيانا ثلاثة خيالة سوا.

وبيوت باريس كذلك هي مبنية على أربع طبقات وبعضها عل خمس طبقات، ولكن لا يسعني أن أحصي كثرة ما فيها من الخلق الذين كانوا واقفين في الطرق والأبواب يطلون من الشبابيك والطاقات الكاشفة لينظرونا حين مرورنا في الأسواق. وفي كل مكان لم نكن نرى الخلق الذي رأيناهم أولا من نساء ورجال وأطفال وشيوخ وغلمان. فذهبنا على هذا الترتيب إلى صراية المتعينة للقصاد، والبيارق التي كانت مصطفة سلمت علينا، ثم جعلوا يعبرون قدام تلك الصرايا التي نزلنا فيها لأجل الفرجة، فحينئذ ودعنا القائد ورجع إلى محله.

وبعد هذا جعل الرجال والنساء يأتون إلى نحونا في تزاحم عظيم وتراكم عميم، فمنهم الزائر لنا ومنهم المتنزه ومنهم الناظر الكاشف، فكيف يمكننا أن نأكل. وكان يأتي إلينا من طرفهم البعض يقولون لنا أن الست الفلانية تطلب منكم الإذن لتأتي لرؤيتكم وتنظركم كيف تأكلون، وأن هذا كان أعظم اشتياقهم. وقد كان يوجد من النسوة ما لا يمكننا منعهن عنا، فكنا نسمح لهن كرها في الدخول. ومن حيث أن صيام النصارى كان متحكم في ذلك الوقت والآوان ولما

كانوا يحوطون المائدة وينظروا إلينا، غير أنهم ما كانوا يذوقوا شيئا من الطعام، ونحن نصبر عليهم لأنها عادة الفرنساوية أنهم يروحون يحضروا على أناس مثلنا فيأكلون معهم، حتى أن ذلك لهم عادة يحضروا على غداء السلطان وعشائه. ولهم عادة أخرى أن السلطان إذا قام من منامه ولبس ثيابه، جاءت أرباب دولته وخدمه وحشمه فوقفوا قدامه وحوله، ومثل ذلك كانوا يعاملوننا، والتزمنا أن نصبر على هذه الطريقة جمعها.

* * *

استقبال السفارة

فبعد مضي يومين، جاء مدخل القصاد إلى عندي وقال لي: "إن السلطان يدعوك إلى عنده عزيمة لتذهب إليه لينظرك وتنظره نهار الجمعة، وأنه كان معين يقودني إلى صرايته حضرة الشيخ المذكور لكي يراك وأنا ومربي السلطان"[1]، وأنه قد جاء جملة أيضا ليأخذوني وإننا كنا نمشي فتلاقينا سوا مثلما حصل في العراضة الأولى. ثم حقق لي أنه ما تعين قط لأحد قايد من العسكر ولا شيخ في خدمة قاصد، وأن هذه العراضة الثانية تكون بأوفر تمام من الأولى وأكثر وأعز.[2]

فبعد السلام والتحية والإكرام طلب أن أقدم الخط الشريف الذي معي إلى السلطان عالي الشأن. وهو مزمع أن يرد الجواب عنه، وأن السلطان في دخولنا

---

(1) يريد بمربي السلطان ولي أمره، فعندما توفي الملك لويس الرابع عشر لم يكن ابنه قد تجاوز العاشرة من عمره، فتكون مجلس وصاية برئاسة - إبن أخ لويس الرابع عشر فليب الثاني دوق أورليان (1675 - 1723) الذي دبر شؤون الدولة لمدة سبع سنوات.

(2) يضيف النص الفرنسي مسألة بروتوكولية على جانب من الأهمية عندما يواصل مدخل القصاد الكلام متوجها ال السفير فيقول:

"Il me fit ensuite plusieurs compliments, en me disant que le roi par l'affection particulière qu'il avait pour moi voulait me faire tous les honneurs possibles, et il ajouta qu'on avait dispose pour mon audience un cortège plus nombreux que celui de mon entrée, qu'après que j'aurais présenté ma lettre impériale le gouverneur du roi me répondrait, que le roi se trouvait debout lorsque j'entrerais et que je sortirais, et que ce serait après cela à moi à faire de ma part ce qui convenait à l'amitié". Veinstein, p. 95.

وخروجنا سيوجد واقفا على رجليه وأني لا أخاف من طرفه لأنه سيظهر لنا كل برهان المحبة اللائقة. وبعد إعلامه هذا رجع إلى محله.

ونهار الجمعة[1] قدم إلى صرايتي الشيخ لامبرك[2]، وهو رأس قائد العسكر، والمدخل المذكور واتباعي اصطفوا صفوفا كما في البدء في دخولي إلى باريس ما عدا أنهم ما نقلوا سيوفا ولا طبنجيات ولا رماحا، وكانوا بملابس فاخرة جدا فكلفوني إلى المضي فأحضروا لنا خيلا إلي و إلى إبني من خيل الملك بعدد مجوهرة ذهبية، فركبنا واصطف الألاي أمامنا وحولنا شيء عظيم، وولدي كون أنه ديوان أفندي[3] كان حاملا المكتوب الملوكي، وكان راكبا فرسا لايقة ولجامها كان مثقلا بالذهب والجواهر الثمينة شيء غير موصوف، وبعده أنا مقبل بعمامة الديوان، أعني قلاوية[4] الوزارة، ومتوشح بفرجية بفروة سمور[5] وتحتي غاشية أذيالها واصلة للأرض وحضرة الشيخ لا مبرك كان على يميني والمدخل على يساري.

وقد كانوا أمروا بقدوم الجند القاطنين[6] في فصل الشتاء في المكان المتقدم ذكره من خياله ورجاله ليأتوا لأجل الألاي ليعرضوا قدامنا حتى ننظرهم، فالأغلب منهم كانوا لابسين قبابا جديدة، وكانت عدتهم ما تنوف عن ثلاثين ألفا حد مصطفين من عند صرايتي إلى حد صراية السلطان،[7] وأخذونا من طريق مدخل السراية، أعني طريق البساتين الذي هو طرق بستان السلطان. فكان مرورنا بين البساتين حتى ندخل صراية السلطان. ووجدنا في البستان المتصل في الصرايا فرقتين من الخيالة واقفتين هناك يمينا وشمالا، الأولى يسمونها فرقة القواسة الشهباء، والثانية السوداء

---

(1) وهو الموافق ليوم 21 مارس 1721.

(2) الاسم مصحف والمقصود هو (Le Prince Lambesc) وهو كبير قواد الجيش زمن لويس الخامس عشر.

(3) أي ناظر الديوان وحاجبه.

(4) يقصد قلنسوة.

(5) السمور حيوان ذو فرو ناعم.

(6) يحدد النص الفرنسي انتماء هؤلاء الجند فيذكر انهم كانوا من الفرسان والمشاة.

(7) يضيف النص جملة تقيمية للجيش الفرنسي حيث يقول :
"أعترف أنني رأيت فرقا عسكرية رائعة، مختارة بعناية، وجد قوية"، ص 95.

لأن الأولى خيلها شهباء والثانية خيلها سوداء. وهاتان الفرقتان هما المعتبرتان في العسكر في مملكة فرانسة أكثر من الجميع لأنهما تتركبان من أنفار كثيرين وتحتويان على شباب وغلمان شجعان وشرفاء وأعيان، وهم في غاية الزينة الجميلة. فلما عبرنا فيما بينهم سلموا علينا سلاما معتبرا ودخلنا إلى أن دنونا إلى قرب سلم باب الصرايا، نزلنا عن خيولنا وأخذونا إلى محل الراحة فيه مخصوص لذلك، وهو المكان المختص بتعليم وتربية السلطان. فبعد راحتنا قمنا من ذلك المكان إلى مكان آخر أنزه من الأول وأعلا منه. وكلما خطونا خطوة كنا نرى رجالا تأتينا وتسلم علينا من ذواتهم ويحيونا أحسن تحية، وعلى هذا الأسلوب بلغنا إلى باب الديوان، وشاهدنا هناك هذا المقدار من الخلايق الذين جاءوا لاستقبالنا وأحاطوا بنا من الجهات، فكانوا من شدة الازدحام يعسر عليهم المرور وبالكاد العظيم وصلت إلى باب الديوان.

ثم أني اجتمعت على إثنى عشر رجلا من أتباعي دخلت بهم إلى الديوانخانه، فرأينا هناك كراسي عديدة ما تنوف على ثلاثمائة، وهي مصفوفة على الترتيب حتى عرش الملك كأنها مكان العروس المزينة في بلادنا، وعلى هذه الكراسي كانت جالسة أشراف ستات نسوة الدولة وكذلك من أهالي نسوة السلطان ورجال خواص بالثياب المتفاخرة المرصعة بالحجارة الكريمة المزينة والملك جالس في صدر ذلك المكان، في مكان عال وعليه من الجواهر شيء لا يوصف ولا يكيف لا بقلم ولا بلسان.

ففي حال دخولنا قام جميع من كان على الكراسي على أقدامهم قائمون، والسلطان كذلك لما قربنا قام لنا واقف، فأقمت أنا له التمني اللائق وتناولت الخط الشريف على رأسي ووضعت يدي على صدري مخضعا له، وسرت كالمتوسل بين يديه وتقدمت إلى جانب السلطان ورفعت يدي على رأسي، ثم قلت للسلطان: "هذا هو الخط الشريف من صاحب العز والعظمة والقدرة بادشاه الإسلام وولي نعمتي أفندم سلطانم[1] السلطان صاحب الشوكة أحمد خان بن السلطان محمد خان." ومن حيث أن السلطان كان صغير السن جدا،

(1) يستعمل المترجم هنا ضمائر تركية، وهو يقصد: سلطاني وسيدي.

تقدم الوزير الأول وأخذ المكتوب من يدي ووضعوه على كرسي صغير كان هناك مكلل بجانب عرش الملك ملبس بثوب كسروي.

ثم أني أخرجت مكتوب الوزير الأعظم الصادر من صاحب الدولة، وقدمته للسلطان وقلت له: "هذا مكتوب صاحب الدولة والسعادة الوزير الأعظم إبراهيم باشا صهر السلطان المحترم". فالوزير المذكور تناول الكتاب المرقوم ووضعه تحت الخط الشريف الملوكي.

وبعد أن ناولت المكتوبين المذكورين للسلطان قلت له: "إن أستاذي - يقصد سيدي- السلطان أرسلني إليك قصده كثرة المحبة وعمق المودة والصحبة تكون بين المملكتين قائمة ولتظهر الرضى بين الفريقين على الخصوصية التي لكم نحونا ولنا نحوكم، وكم من المحبة لحضرة سلطان فرنسا عالي الشأن عند حضرة سلطاننا المحفوظ لأجل ازدياد هذه المحبة ونموها أرسلني".

وبما أن السلطان صغير السن[1] كما تقدمنا لأنه وهو في هذا السن ابن أحد عشر سنة، ودخل حسنه وجماله في سنته إثنى عشر، ففاق في حسن الوصف والجمال، ومع هذا ثوبه المثقل والمكلل بالذهب والحجارة الفاخرة من الألماس وغيرها كان يمتد منها نورا ساطعا في الديوان خانه ما يكل عنه الوصف والظرف في كل جهة وما كان أحد يقدر أن يملك النظر من جميع جوانبه.[2]

فبعد أن فرغت من كلامي ما جاوبني شيئا، بل إنما القائد دوبلاد[3]، وأمد يده كلمني عنه قائلا: " إن السلطان قد قبل ورضى من مكتوب بادشاه الإسلام

---

(1) ولد لويس (الخامس عشر) في 15 فبراير 1710 وكان يوم الاستقبال هو 21 مارس 1721.

(2) تذكر بعض النصوص أن السفير العثماني ارتبك لمجيء الملك الفرنسي لويس الخامس عشر ولم يستطع أن يلقي كلمة بالشكل الذي أورده في وصف الاستقبال، وتميل هذه النصوص إلى أن إيراده لما يفترض أن يقوله كان من باب تغذية أنانيته حتى لا يلقى نفس مصير إبراهيم السفير الموفد إلى النمسا. Veinstein, p. 90.

(3) هذا الاسم مصحف ولعله يقصد أحد رجالات الدولة الكبار في عهد الوصاية المسمى (Guillaume Dubois) (1656 - 1723)، فقد كان للرجل في بداية التحاقه بالبلاط الملكي زمن لويس الرابع عشر مهام ديبلوماسية سرية إذ أوفد إلى أنجلترا واستطاع أن يقنع الساسة الفرنسيين بالتحالف مع بريطانيا ضمانا لأمن واستقرار فرنسا. وهو الرأي الذي دافع عنه عندما أصبح كبير وزراء الوصاية حيث كان مقربا من رئيس مجلس الوصاية فليب دو أورليان.

ومن انتخابك أنت إلى هذه الرسالة ولو أتى غيرك بهذه الرسالة ما كان حضرة السلطان ينسر بهذا القدر، وحضرة سلطاننا أيا يريد المحبة تدوم وتكثر بين الملكين دائما". حينئذ شكرت فضله واعتناءه على ما قدموا من الواجب والإكرام في الطريق وهنا. ومن بعد كلامي وهذا الجواب من المذكور والجمع كله واقف. فبعد ذلك وضعت يدي على رأسي ورجعت مقهقرا بعد الاستئذان بالرجوع. فبعد كم خطوة خطوتها وتوادعت منه نزلت في السلم وركبنا الخيل مثلما جئنا، هكذا رجعنا بين الخلق المصطفين والعساكر المجتمعين إلى أن انتهينا إلى محلنا.

* * *

استقبال الوصي

ونهار الجمعة الذي حصلت فيه المشاهدة والمقابلة كان يوم اعتدال الربيع[1]، فحينئذ مدبر المملكة أرسل المدخل الذي كان في خدمته لأجل دخول القصاد، وعرض علي أن أفنديه كان يدعوني لأذهب أنظره بالغد، وأن في الصباح سيقدم إلى عندي مع العرابابة ليأخذنا فيها، ولكن أهل الشعب وغيرهم كانوا في الاشتياق إلى أن يروكم، وقد فرحوا بقدومكم، وأن تركبوا خيلكم وتمروا عليهم ليتملوا بمشاهدتكم.

فلما كان الغد ركبت على حصان مسروج بالعدة الكاملة مثل الأول وأتباعي كذلك ركبوا معي على خيلهم، وسرنا على الأسلوب الأول، يعني حين واجهنا حضرة السلطان. ولم أرد أن أركب العرباية لأن أكثر الشعب كان يريد أن يرانا على ظهور الخيل لكي يروا خيلنا ولبسنا وزينا، فلأجل هذا السبب لم أرد أركب العرباية، والسبب الثاني لكي نتفرج على زيهم وبلادهم، فركبت ومضيت صحبة أتباعي إلى سراية المدبر فنزلنا من ظهور خيلنا. وفي وصولنا إلى صراية المدبر أدخلوني أوضة ومنها إلى أوض كثيرة وأماكن عديدة متفاخرة بأنواع الدهانات والأشكال ومزخرفة بالذهب ونقوشات وفرش مفتخر من فضة وذهب وقطع غاليات الثمن حتى اندهش عقلي من النظر إلى هذه الأشياء التي هي نادرة الوجود.

---

(1) يورد النص العثماني الكلمة الفارسية التركية المعروفة والتي تطلق على اعتدال الربيع: "نوروز".

وما زلنا كذلك حتى أنهم وصلوا فينا إلى الديوان خانه، فالمدبر المذكور كان جالسا على كرسي والجميع مصطفون في ذلك المكان مثلما كانوا في ديوان خانه السلطان. وفي الحال رآنا القادم تقدم إلينا كم خطوة واستقبلنا ورفع الشبقة من على رأسه وسلم علينا وحيانا، وكذلك على رسم المحبة والصحبة فأنا وضعت يدي على صدري وباديته بقولي:" أسعد الله أوقاتكم". وأخذت مكتوب الوزير الأعظم وقدمته له، وقلت: "هذه هي رسالة صاحب العناية الصدر المحترم إبراهيم باشا". فبسط يده وتناوله، وبعد قليل من الخطاب بأنواع المحبة والمودة اللائقة. ثم بعد ضيافة من مربيات وحلويات، تودعت منه وركبت ومضينا إلى محلنا.[1]

* * *

الخروج إلى الصيد في صحبة الملك

وفي اليوم الثاني ذهبت عند الوزير[2] أزوره فزرته وأكرمني. وبعد أيام قليلة أتى البيك زاده الذي كان تعين لمرافقتي، وبعد خطاب مستطيل معه، قال لي: "إن السلطان كان هامما على الخروج إلى الصيد فإن كان لك خاطر على التوجه معه تفضل". فأعجبني قوله هذا كثيرا، فقلت له: "إن كان حضرة الملك له

---

(1) يتجاوز النص عن الدخول في بعض التفصيلات الجانبية، فهو يستغل وصف أبواب القصر الملكي ليشير أنها كانت محروسة من قبل جنود سويسريين الذين كانوا في خدمة الأسرى المسيحيين: "لأنهم أقوياء وشجعان ومخلصين في تنفيذ ما يصدر إليهم من الأوامر ولذلك يتم اختيارهم للحراسة. ومن إخلاصهم وتفانيهم يحكى أن أحد السويسريين وضع حارسا على باب من أبواب حديقة فريساي وأمر أن يمنع من الدخول أي شخص، وفي هذا الأثناء أراد الملك أن يقوم بجولة، فهم بالدخول إلى الحديقة فمنعه الحارس واضعا حاجزا على الباب قائلا إنه يمنع الدخول على كل الأشخاص، فأخبره الملك: "هل تعرف أنني أنا الملك"، فأجابه: "نعم أعرف ولكن هذا لا يهم فأنا عندي أمر مطلق وعليه تنفيذه". فأعطاه الملك على أثر ذلك حفنة من الذهب، فقال له السويسري: "أتريد أن ترشيني بالمال لتعاقبني فيما بعد ولتنال من شرفي".

Veinstein, p. 99 - 100.

(2) يتعلق الأمر بـــ (Guillaume Dubois) (1656 - 1723) الذي أصبح أرشيفك (Cambrai) في سنة 1720 و كردينال في 16 يوليوز 1721 اي زمن زيارة محمد افندي و قد أصبح فيما بعد الوزير الرئيسي (Ministre principal).

رضى ولا بأس أن أمضي مع حضرة السلطان أصير قوي ممنون[1] بهذا".[2]

وفي الغد ركبت في العرباية للتوجه معهم للصيد. وكان الخدم والحشم من أتباع السلطان خارج البلد في انتظار حضرة السلطان والستات من النسوة وكذلك اللواتي هن من أهله كن هناك. فلما وصلت إلى نحوهم وقفت فيما بينهم. فبعد دقيقة وصل السلطان في العرابابة، فلما قرب مني رفع شبقته من على رأسه وحياني وعمل لي إعزازا وإكراما واحتراما، فرددت عليه السلام وأديت تحية الملوك كما تجب غير أني لم أخرج من عرابايتي.

وبعد ذلك ركب السلطان على ظهر الجواد، وسألني خاطري في الركوب معه لأرى مكان الصيد، فحالا ركبت مع المريشال ديوبلاق[3] مدبره المرقوم. وأما النسوة الشرفا اللواتي من أهالي السلطان خرجن من عرباتهن وركبن الخيل مثلنا، لكنهن بلباس الرجال وبدين يخيلن في الميدان فكان ذلك فرجة وأي فرجة. ثم أننا وصلنا إلى موضع الصيد، فالمواقفين كانوا جاءوا ومعهم الطيور الخاطفة في كل شكل مثل البواشق والشواهين والصقور والنسور والبازات فكانوا وقتا يطلقون الشاهين على الأرنب، وأحيانا يرخوا النسر في الجو وأحيانا المرنوق والبالقجيل والباشق. وبعد هذه الفرجة على هذا لصيد الملوكي رجعنا صحبة السلطان إلى البلد وذهبنا إلى محلنا، وكان ذلك النهار نهارا ملوكيا.

* * *

---

(1) غلب التركيب التركي على الجملة وهو يقصد "جد ممنون".

(2) يستغل النص الفرنسي ذكر استقبال الوزير الفرنسي ليعرض لمؤسسة الوزارة في النظام الفرنسي، يذكر بالخصوص بوظائف وزير الخارجية و مهامه كما يعرض أيضا لذكر الهدية التي قدمها للوصي على العرش وهي عبارة عن فرس من بين الخيول الثلاثة التي جلبها معه من إستانبول و يقول : "ان قدومي عبر الطريق البحري للوصول الى فرنسا حال دون جلبي أكثر من ثلاثة خيول أهديت احدها للوصي، و قد كنت أجدني في حرج كلما اردت أن أقوم بجولة غير أن هذا الحرج رفع عني بعد شهر واحد عندما ارسلوا إلي عربتين و ضعتا رهن اشارتي "

Veinstein, p.119، 105 - 104.

(3) يتعلق الأمر بالمريشال (Francois de Neufville Duc de villeroy) (1644 - 1730)، وكان من نبلاء فرنسا عاش زمن الملكين لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر، وكان زمن حلول محمد أفندي بباريس أحد أعضاء مجلس الوصاية.

الاستعراض العسكري

وبعد أن شاهدنا ذلك منهم رجعنا إلى محلنا[1]، وكان الأكابر يأتون إلى عندي دفعات مجتمعين حتى ينظروني ومنهم من يأتي ليسلم علينا، والمرسل ديويلاق، مدبر السلطان، جاء كذلك وسألني إن كان لي إرب في النظر إلى عسكر السلطان وهو متأهب لحركة الحرب والقتال وكيف الجنود تتعلم وتتعوذ على الحرب وكيف يكون طريقتهم في ذلك لأجل أن العساكر الآن موجودة هنا وفي الغد يريد السلطان أن يعرضوا عليه، فلأجل هذا ممكن أن يصير مثل المتفرج إن كان لك خاطر حتى نفرجك، فعند ذلك أظهرت السرور والرضى بهذا و قلت له لا بأس في النظر لذلك. فكان السلطان أمر أنه في الغد يكون العسكر أمامه، وكذلك تم في اليوم الموالي.

ففي الصبح أرسل المدبر ثلاثة أنفار من أتباعه فمضينا معهم إلى أن دخلنا بين أشجار وبساتين وصلنا إلى موضع كان مظللا بظلمة تشبه الزمرد. وهناك كانت موجودة البيارق مفتوحة والزلام مصفوفة على خمسة صفوف وستة صفوف كل صف شكل، وطول الصفوف بهذا المقدار حتى أن النظر بالكاد يقدر أن يمتد إلى آخرهم. وجميع أكابر الدولة مع الستات الذين هم (اللواتي هن) من أهل الملك جميعهم حاضرون هناك في العربايات مع كثير من نساء الأمراء والشرفاء.

فلما انتهينا إلى هناك اوقفونا في مكان مناسب للفرجة، فبعد هنيهة حضر مدير المملكة برفقة غلمانه ومعه بعض رؤساء العساكر الفرنسوية وبعض أكابر الدولة. فحالاً ركبت أنا على الحصان واستقبلته. وإذ كنت أسلم عليه في تلك الساعة وصل السلطان مع مديره فحالاً تقدمت إلى استقباله والستات

(1) قفز النص العثماني على فقرة مهمة يوردها النص الفرنسي و تتعلق بوصف "ميدان الملكة" الذي تم إحداثه في سنة 1616، حيث يعرض السفير لوصف هذا الميدان فقد ذكر أن "الملك كان يتردد عليه كثيرا بعربته و تأمه السيدات و الآنسات من علية القوم للتنزه به ومشاهدة الملك. وقد دعي السفير لزيارته بإلحاح من الملك الذي كان يروقه مشاهدة السفير التركي لأنه لم يسبق أن شاهد تركيا بباريس ولا لباسا تركيا، فقد كان الملك يشاهدنا بإعجاب وكلما حدثوه عنا ازدادت رغبته في معرفة الأشياء الغريبة فينا". Veinstein, p.106-107.

أيضاً استقبلوه (استقبلنه) فبعدها ركبت النساء حالاً ظهور الخيل وهم (وهن) بزي الرجال وشعورهم (وشعورهن) مرخاة على الأكتاف يحركها الهواء وينسفها من هنا إلى هناك، فعندها عزمني مدير السلطان إلى جانبه وكنا نسير سواء والسطان قدامنا ونحن خلف وذهبنا هكذا ونحن ننظر إلى العسكر حتى بلغنا إلى آخر الصفوف.

ومن ثم رجعنا على أثرنا وحين كنا في نصف الصفوف رأينا أن حضرة الملك ارتفع فوق تلة هناك قريبة ودعاني إلى عنده فصعدت وجلسنا بجانب بعضنا الواحد مقابل الآخر تجاه العسكر. وفي ذلك الوقت كان الأورضي[1] جميعه فاضياً والسر عسكر واقفاً قدر ربع ساعة. فمقدم العسكر تقدم بحصانه وأتى وقف بيننا، فبقي العسكر في وجه، وكان عن يمينه في مكان بعيد أربعة طبول وهكذا عن شماله فأخرج منديلا من جبيته وحركه بيده ففي الحال ضربت الطبول والعساكر غيرت وقوفها. وآخر الأمر كلما كان مقدم العسكر يحرك منديله تضرب الطبول، فكان العسكر يتغير من حال إلى حال بالوقوف والسير وذلك بحسن لطافة وظرافة وسرعة، فبقوا على ذلك إلى أنه كان ينظرهم الناظر شيئا واحدا،حتى كنت أنظر إليهم متعجبا لأن حركتهم مع كثرتهم كأنها حركة شخص واحد، وعلى كل إشارة من المقدم العسكر كانوا يجيبون لإشارته فوقتا يرفعون كلهم تفنكهم[2] ووقتا طبنجاتهم ووقتا سيوفهم. فأحيانا يركعون على ركبهم على الأرض، وبعد نهوضهم كانوا يلتفتون من اليمين إلى الشمال وأحيانا بعكس ذلك وأحيانا يتهيأون للقواس. وأنا رأيت منهم ما يعجبني، فمكثنا ساعة واحدة ننظر هذه الحركات المختلفة من العسكر المذكور.[3] وبعد ذلك مضينا إلى محل آخر والعسكر جميعه يدخل مع بيارقه مرفوعة منشورة، وهم يمرون

---

(1) وتكتب عادة "اوردو" أو "اوردى" (Urdu) معناها المعسكر والميدان.

(2) "تفنك" كلمة تركية تعني البندقية.

(3) في النص الفرنسي تعليق تم التجاوز عنه في النص التركي والعربي يقول: "أنني مدين بالاعتراف لإحقاق الحق بالقول إنني شاهدت فرقا عسكرية جميلة ورائعة وقوية جدا".

Veinstein, p.109.

من نحونا أفواجا أفواجا، لم يصدم في مكان من وسع الطريق وسهولته. ولما أن مر الجميع استأذنت حضرة السلطان بالرجوع إلى منزلي فأذن لي.

* * *

المستشفى العسكري

وبعد أيام حضر إلى عندي السردار[1] على طريق الزيارة فجلسنا نتذاكر معه. ومن جملة ما قال لي: "إن حضرة السلطان له قصر لطيف آخر لأجل تداوي أهل القتال من الجراحة وغيرها،[2] الذين لا يمكنهم الخدمة وهم كذلك، وأنه لازم أني أذهب إلى ذلك القصر، فإن تفضلتم بالذهاب معي تفضلوا." فقلت: "سمعا وطاعة". فذهبت معه ثاني يوم، وكان قد أعد لنا وليمة عظيمة وكانت جوقة [3]من أصحاب آلات الطرب مع جملة آلات نحو أربعين أو خمسين آلة متنوعة على حسب قوانينهم وعادتهم في الإكرام، فما رأيت قط مثلها وجعلوا يدقوا بهذه الآلات ويطربون في الوقت الذي كنا نتغدى فيه.

وبعد فراغنا من الغداء ذهبنا لننظر المذكور، فتوجه أمامي سردار المزبور إلى أن أخذني إلى بيمارستان[4] مرضى العسكر الذي كان في تلك المدينة معينا لهم ولجماعة السلطان الذين كانوا لما يمرض واحد يضعونه في هذا البيمارستان ويهتمون به، و كشفنا على الجنود المجرحين الذين كان يداويهم الحكماء، فرأيناهم أكثر من خمسمائة أو ستمائة على فراش كل واحد منهم، وهذه الفرشات مكلفات مثل الفرشات التي توجد في بيوت الأكابر ورأيت قدر خمسين أو ستين أو أكثر من الخدم والحشم تخدمهم، و كلهم وقفوا صفوفا حين رأونا، والذي لا قدرة له على الوقوف لشدة مرضه بقي مطروحا على فراشه،

(1) يتعلق الأمر (Claude Leblanc) (1669 - 1728) الذي كان كاتب الدولة في الشؤون الحربية في الفترة ما بين 24 شتنبر 1718 وفاتح يوليوز 1723.

(2) يتعلق الأمر (l'Hôtel des Invalides) الذي شيد ما بين 1670و1676 وتصل طاقته الاستيعابية إلى 7000 قاطن. وكان مخصصا لإيواء الجرحى والمسنين من الجنود الفرنسيين.

(3) يذكر النص الفرنسي أن هذه الجوقة كانت مكونة من أجمل نساء باريس. Veinstein, p.109.

(4) أصل الكلمة فارسي وتعني المستشفى.

وكان الأطباء حولهم يعالجونهم بكل ما يلزم لهم في الطب والحكمة. ورأيت إسبيتالا الأدوية شيء عظيم جدا، وذلك المكان كان يشبه روضة من الرياض ولأجل الاعتناء الذي لا يقدر أحد من الأكابر على مثله ولا في بيته فتعجبت غاية العجب من اعتنائهم.

ثم أننا ذهبنا من عندهم إلى الأوضة المحفوظة بها الأدوية فكنا نرى هناك ما يزيد على الألوف من القناني الزجاجية الملأى من أنواع المياه المعلومة للأذهان وهم على أشكال عديدة وهي مملوءة من كل أشكال الأدوية الملوكية وكذلك أدخلونا أوضة وهي برسم آلات مثل عدة مراطبين وهواوين ومناخيل وأجران ومكينات وغير هذه من الآلات المتعلقة بالحكمة المخصوصة للمرضى والعلاج. ثم أخرجونا إلى مكان آخر، وذلك المكان مختص بآلات الجراحة وهو شيء يكل عن وصفه اللسان من كثرة الآلات. وبعد ذلك ذهبنا لنرى المطبخ حيث أننا نظرنا لكل الأواني المختصة بالأكل والشرب، فرأينا في المطبخ ثلاثة آلاف جندي معدومي الخدمة منهم دائرون ومنهم نائمون على التخوت وهم جميعهم في تلك السراية. ولعمري إن هذا القصر عظيم جدا بثلاث طبقات عامرات مبنيات بالحجارة والمونة، متسع المكان واسع البنيان.

وبجانب هذا القصر كانوا معمرين كنيسة[1] لها قبة عالية للغاية مذهبة مزينة بأنواع التصاوير المختلفة ذات جمال مستغرب ومشغولة بصناعات غريبة وتعب زائد وداخلها أرغون كبير وعظيم جدا وكانوا يلعبون فيه لما دخلنا إليها، وقد رأينا آلة بغال من صنوج وأورغانق كبير للغاية الذي دقوا فيه حين دخولنا للكنيسة. وبقية ما رأيناه هناك شيء لا يكيف ولا يوصف بعد أن تفرجنا مضينا من هنالك إلى محلنا.

* * *

---

(1) يقصد (La chapelle des Invalides) التي بنيت ما بين 1679و1706 من قبل (Jules Hardouin-Mansart).

زيارة خزينة الدولة

وبعد أيام دعاني المريشال مدبر السلطان المذكور إلى بيته لأجل الإكرام والطعام ومزيد الإنعام ثم قال لي: "إن كنت تريد تزور السلطان عرفني". فكان ذلك غاية مرادي. فأخذني بيده وقال لي: "بعد أن يتم الغداء أدخلك إلى عنده". فدخلنا ورأينا السلطان في الديوان خانه مثل أول مرة، وكان معه شبانه وغلمانه من الأكابر والأعيان. فلما دخلنا عليهم تقدم إلينا فقدمت إليه، وأظهر لنا المحبة والصداقة والمودة في سائر الكلام والخطاب. وكانوا يتأملون في ثيابنا وملابسنا ودلاياتنا الواحد بعد الآخر، والمرسل سألني كيف أقول في جمال الملك وشرفه وظرافته، فأجبته:" يحفظه الله"، فقال لي: " إن عمره أحد عشرة سنة فقط وأربعة أشهر لا غير، ولكن قدره مناسب وأعضاؤه متساوية وخصوصا شعر رأسه كان في الغاية والنهاية ولم يكن مستعارا مثل بقية شعور الإفرنج بل هو خلقه من شعر رأسه وبقوله هذا مسك السلطان ولفته إلى ناحيتي لكي يريني شعر رأسه حينئذ أنا مسكت شعر رأسه بيدي وقلت له: "ما شاء الله حرسك الله وحفظك". وكانت أعضاؤه جميعها مناسبة ومشيه كذلك كان متناسباً وجميلاً وخطابه عذباً جداً.

ثم أن المريشال قال للسلطان: "يا سيدي امش أمامهم لكي يروا مشيك" فمشى السلطان حتى إلى نصف الديوانخانة ومن هناك عاود، ثم أمره المريشال أن يجري بسرعة لكي يرينا خفته ففعل كذلك وهرول إلى نصف الديوانخانة وعاود. ثم سألني المريشال هل أعجبني سلطانهم فأجبته بعد التمني: بارك الله فيه.

ثم بدأنا في التأمل والنظر في التصاوير العجيبة[1] التي هي داير الديوانخانه فكنا نمشي مع السلطان وهو كان يعرفنا في أصحابها المصورة وأساميها والذين صوروا هذه الصور، ويقول هذه صورة فلان وهذه صورة فلان وهكذا إلى الانتهاء. وبعد هذا أخذنا إلى طبقة وإلى مكانه المخصوص وكان يسير ويمشي معنا من مكان إلى مكان حتى فراشه وإلى الموضع الذي كان يدرس فيه

---

(1) يتعلق الامر بمجموعة سجادات كوبلان (tapisseries des Gobelins) المعنونة (Histoire du Roi).

تحت يد شيخه ومعلمه[1]، وآخر الأمر توادعنا منه بخروجنا من عنده جلسنا على مائدة طعام.

* * *

مجوهرات القصر الملكي

وبعد ذلك سألني المرسل إن كان لي خاطر بالنظر إلى خزنة جواهر السلطان، فأجبته بنعم وهذه غاية أربي، فقال لي تفضل وأخذ بيدي وأدخلني إلى أوضة السلطان، فرأيناه واقفا والخزندارية كانوا يكشفوا عن الجواهر ويخرجوها كلها لأجل النظر إليها. فكنا ونحن نسير ننظر إلى واحدة بعد واحدة بمفردها ورأينا شيئا يدهش العقول. ورأينا هناك ثلاث قفاطين، الأول منهم مرصع باللؤلؤ الرطب الكبار والياقوت المختلف الألوان، والثاني كان مرصعا باللؤلؤ والألماس. واللؤلؤ المذكور كل واحدة مقدار البندقة في غاية البياض وهو مناسب لبعضه البعض، وكذلك الياقوت كان بغاية الحسن والخلقة. والقفطان الثالث كان مرصعا بالألماس فقط. فلعمري أني عجزت أن أعرف قيمة كل واحد من هذه القفاطين لاسيما قيمة حجر من الحجارة المذكورة لا أعرف قيمته لأني ما شاهدت مثل ذلك أبدا كحسنهم وغايتهم.

ثم أنهم كشفوا لنا أيضا عن حبل لؤلؤ سلكا قدر ستين حبة وكل حبة منه تشبه في القد حبة جوزة الطيب مع حسن الجودة والصفاء، ولما يجلس الملك على التخت يحملها بيده ويلبس واحدة من هذه البدلات، ففي دخولي عنده كانت عليه واحدة من هذه البدلات وكانت بيده سبحة ورأيت هناك داخل علبه حجر مثل الجمرة ليس له نظير، وهو أكبر من جوزة الطيب مدور يلمع كالبرق، وله شعاع كشعاع الشمس في غاية البياض ولا هو مثقوب، وحين يضعوه على المرآة لم يزل يتحرك من ذاته تحركا للغاية لم يهدأ قط فلهذا يسموه الدر السلطاني.

---

(1) وهو (Andre Hercule de Fleury) (1653-1743) الذي أصبح أسقف (Frejus) سنة 1698، وعين مؤطرا للأمير لويس (الملك لويس الخامس عشر) سنة 1714، ثم عين وزيرا للدولة ثم كاردينال في سنة 1726.

ورأيت كذلك من حجر الألماس الأصغر الواحد منها في علبة كان مثلث الشكل بنفسجي اللون في غاية الكبر والثمن. ورأينا أيضا الياقوت الأزرق اللون المربع الطويل الجسم قدر الباهم، ورأينا أيضا حجرا آخر من الألماس، كانوا من قرب عهد ابتاعوه من الإنكليز بستة آلاف كيس مربع الوسط وجانبيه شكل القبة في غاية الصنعة براق أبيض ولم ير فيه عيبا أبدا وزنه مائة وثلاثون قيراطا وكبره قدر الجوزة الرومية. والسلطان بذاته كان يعطيني بيدي بعض الجواهر لكي أتبصر فيها.

وفي أثناء ذلك سأل المريشال السلطان لمن هذه الجواهر مخصوصة، فأجابه أنها مملوكة لحضرته، فأجابه المريشال إنها مخصوصة لتاجك ومملكتك. ثم ودعنا السلطان واستأذنا، وخرجنا من طبقته.[1]

* * *

الخرائط والمجسمات

والفرانساويون لهم عادة أنهم يرسمون البلدان والأقاليم في الأوراق الكبار، وقد رسمنا هنا كل البلدان والأقاليم رسما خصوصيا، فرأيتها ورأيت كل المدن التي في حدود مملكتهم مصورون فيها السهولات والعقبات والبساتين والأنهار والأشجار والمحلات الخارجة عن السور والداخلة والصعود والنزول، فالذي يتأمل في هذه الرسوم يظن أنه معاين لتلك الحدود بعينها المصورة، وقد اجتهدوا جهدا كليا حتى أنهم جعلوا تلك الأماكن في الرسم في كنهها وصنفها على وجه حقيقة أسواقها وبيوتها وكنائسها وجسورها. والفائدة والنتيجة الصادرة لهم من هذه الرسومات فهي إذا جاءهم العدو قاصدا حصار أحد المدن المرسومة ينظرون من أي مكان يقدر ما يمكن المجيء عليهم، وأي الأماكن التي يلزم يحصنوها،

---

(1) يقدم النص الفرنسي شروحات عن نظام تولية الملك في فرنسا فيقول: عندما يكون للفرنسيين ملك/ طفل فان العادة تقتضي ان لا يتوج الا بعد بلوغ سن الرشد ومن هنا كانت سلطته متقطعة ولأجل ذلك ينصب وصي، ويكون هذا الوصي شخصا ثقة تناط به كل أمور الدولة. ولم يكن وصي لويس الخامس عشر سوى عمه دوق اورليان.

Veinstein, p.114.

والسلطان يعاين ذلك كله بعينه كأنه حاضر وناظر على تلك الأطراف. وقد أنفقوا إنفاقا لا يحصى في تكميل هذه الرسوم وضبطها، وقالوا لي أنهم لم يظهروها لأحد إلا لي حيث كنت متشوقا للنظر فيها، فأجبتهم أن ذلك غاية مرادي وقصدي.

ففي الحين أمر المريشال الساري عسكر المتعين في حفظ المدن المتطرفة في وقت حصارها فجاءني، وذهب بي إلى الديوان خانه وفتح لي الرسومات، فإذا هي أوراق مرسومة طويلة وكبيرة، وهي مائة وخمسة وعشرون رسما، وكل رسم كان موضوعا على سرير من لوح، وفيها من الدقة والضبط العجيب للغاية حتى أنه لا يمكن أن توصف بشفة ولسان لأنه شيء عجيب وغريب وهو من عجائب الدنيا، لأن مضبوط فيها جميع الآكام والجبال التي حول القلاع والجبال التي في جانبها والسحرات والحقول والأماكن المعلومة الملتفة بالأشجار الغزيرة الأثمار مرسومة فيها بأشجارها وأوراقها من حرير كبير قد الأنملة، وكذلك صفة مرور الأنهار من جوانبها كما هي في أماكنها ومن أي مكان يأتيها الماء وإلى أي مكان يذهب وإن كانت المياه المحيطة بالأسوار والداخلة فيها من الوسط والجنوب والجهة وكيفية جسورها الموقعة وخنادقها الموسعة وصفة أبوابها وقلاعها ووسعها وضيق الأسواق وكنه طبقاتها وجدرانها وبيوتها. وحاصل الكلام أن الجميع بهذه الصفة مضبوطة في الرسم لأجل الواقف على ذلك جميعه يكون له إطلاع على معرفة البلدان التي مرسومة وأخبارها، بحيث إذا نظر إلى مرسومها كأنه يشاهدها. ولم أر في فرنسا مثل هذه الفرجة العظيمة لأنه شيء لا يقدر الإنسان أن يصفه بلسان. وكذلك أظهروا لنا بهذا الرسم القلاع الفرانساوية التي فتحوها وملكوها من أيدي الأعداء وقد صوروا فيها الأمكنة التي حاصروها ومصور بتلك الصور من أي ناحية قدروا على فتحها ومن أي جهة حاصروها، وكيف أقاموا المتاريس. والنظر إلى هذه الرسومات ينبئ عن معرفة الأماكن ويخبر عن كيفية الوقوف وأحوال كل واحدة من القلاع والمدن المرقومة.

ولما كنا على هذه الحالة شاخصين في تلك الرسوم حضر السلطان بيننا فسأله البعض: "هل أنت مشتاق للنظر إلى قاصد سلطان الإسلام؟". فأجابهم: "أنا أعلم أن المذكور في غاية الشوق إلينا". وبعد وقوفه قليلا ذهب. وقد رأيت السلطان في ذلك

اليوم ثلاث مرات. وكذلك مكثنا ننظر في تلك الرسومات مقدار ساعة أو ساعتين، وبعدها ودعت المريشال وتوجهت إلى محلي. وقد ذهلني ذلك الرسم.

* * *

وصف الأوبرا

وفي مدينة باريس يوجد عندهم أشكال لعب خصوصية يسمونها أوبرا يلعبون فيها بصناعة عجيبة. وتجتمع لذلك أناس كثيرة حتى أن الأكابر والوصي المدبر للملكة يذهبون لذلك دفعات شتى حتى أن السلطان بعض الأحيان يأتي للحضور والنظر لذلك.وهكذا نحن أردنا أن نمضي ونتفرج على هذا الملعوب. فحضرنا لنرى هذا اللعب وذهبنا إلى موضع قريب لصراية الوصي المذكور، وقد كان هذا المكان مخصوصا للعب وكانت فيه مجالس شتى وكراسي مختصة بالناس على مراتبهم، عال ووسط وواطئ، وقد أجلسوني في المكان المعتاد لجلوس السلطان فيه، فكان المكان مغشى بالذهب وبالمخمل الأحمر، وجاء الوصي ليحضر اللعب فجلس في مكانه ثم أن المكان بعد ذلك امتلأ بالناس من رجال ونسوة وأكابر. وكان هناك موقع آلة الموسيقى نحو من مائة صنف. وقبل دخول الليل بساعة قبل سكرهم على عادتهم قفلوا الأبواب وأوقدوا الشموع الذهنية والعسلية بكثرة عظيمة الوصف، وزينوا ذلك المكان في مثل هذه الأوقات بزيادة وافرة عن بقية الأيام لأجل حضوري هناك وكذلك الدرابزون والعواميد والسقوف وكانت كلها مذهبة. والنسوة اللواتي أتين كلهن بأنواع الثياب المثقلة من الحجارة المعدنية، ونور الشمع كان زايد الوصف بهجة للغاية. ولا يمكن وصف ذلك المكان وتلك الثياب بوجهتها بكل كفاية، وكان موضوعا سترا في الوجه على الجميع كله على موضع اللعب. وبعد حضور الناس وجلوسهم في أماكنهم رفعوا الحجاب، فظهر من ورائه صرايا عظيمة ذات فسحة واسعة، وفي صحن تلك السرايا كان أصحاب اللعب المذكورون رجالا ونساء، والنساء جميعهم بلباس مرصع، والنسوة عدتهن عشرون فقط فائقات بالحسن والجمال والقد والاعتدال، وهن لابسات الثياب المخصوصة

ذات الشماع والبهجة، فزادت شعشعة ذلك المكان حتى كان يخطف النظر في تلك الأوبرا يحضرنها وبأن يغنين سوية مع دق آلات الطرب المتنوعة وكن يمددن أصواتهن على أصوات الموسيقى،حتى كان الإنسان بالكاد يميز بين الأصوات وبين صوت الألات، ثم رقصن مدة من الزمان وبدأن في الأوبرا.

ومادة هذه الأوبرا هي حكايات إلا أنهم يلعبوها في المراسح كأنها خبر حقيقي قائم حالا، وجعلوا لكل حكاية كتاب وعدتها ثلاثون كتابا وفي كل جلسة يقلدون حكاية من هذه الحكايات وهو شيء يبهر النظر ويدهش العقل لأن الناظر يظن أن الشيء حقيقي. ولكل واحدة لعب يخصه، والجلسة[1] التي كنا نحن بها تلك الليلة كان مضمونها أنه: وجد أن سلطانا عشق ابنة سلطان مثله فطلبها منه، فأما هذه البنت كانت عاشقة ابن سلطان غيره، فكانوا يقلدون ذلك في المرسح جميع ما كان يصدر ما بين والبنت والسلطان، مثلا لما كان السلطان يقصد الذهاب إلى بستان البنت فالصرايا التي كنا نشاهد في المرسح كانت تتبدل وكانوا يحضروا موضعها بستان مليء باشجار ليمون ونرنج وغيره. ولما كان السلطان يقصد الكنيسة للتضرع والصلاة، كانوا في أدنى دقيقة واحدة يبدلوا المرسح، ومن بستان كانوا يجعلون كنيسة كاملة. وآخر الأمر أن السلطان العاشق والبنت العاشقة المذكورة التجئا إلى امرأة ساحرة عرافية، فالسلطان قصد جلب البنت إلى محبته، والبنت قصدها يبغضها هذا السلطان ويحبها ذاك الولد المذكور. وهذه الساحرة العرافية حضرت في المرسح وأظهرت من السحر حركات مختلفة، وأحيانا كانت ترينا نيران شاعلة وأحيانا تظهر صور شياطين وحينا أشكال حيوانات غريبة ووقتا تظهر قتالا واقعا بين عساكر بشر وشياطين أزلام وخيالة إلى ناحية الغيوم. وكنا نشاهد أشخاصا نازلة من السحاب إلى الأرض وأشخاصا يطيرون من الأرض. فحاصل الكلام أنها أظهرت من سحرها الأمور العجايب والأشياء الغرايب مع رعد وبرق وأمطار حتى أن الذي كان يرى هذه

(1) يتعلق الأمر بأوبرا (Tragedic lyrique)، التي عرضت لأول مرة في سنة 1675. وهو نوع من الموسيقى يقدم خاصة على مسرح الأكاديمية الملكية للموسيقى بباريس في المرة الأولى ثم يقدم بعد ذلك في باقي المدن الفرنسية الأخرى. وقد أحدث هذا النوع من الموسيقى للتميز عن الأوبرا الإيطالية.

الأشياء لا يظنها إلا حقيقة ولا يصدق السامع بهذه الأشياء ما لم يرها لأنها أشياء غير مصدقة بالنقل فرأيت هذه الأوبرا شيئا عجيبا، وليس الخبر كالعيان.

وكانوا يظهرون أحوال العشق جميعا على طريقته وأنواعه بهذا المقدار من اللياقة والصناعة، حتى أن الذي كان يشاهد رقة السلطان وتواضعه للبنت المرقومة لكان ينحب ويبكي من النظر إلى هذه الأوبرة. وكان الناظر والمعتني بهذه الأوبرة أحد كبار الناس في مدينة باريس ومن الأغنياء لأن هذه الأوبرة تحتاج إلى مصاريف عظيمة. ومن حيث أن مصاريف هذه الصنعة كثيرة والفائدة وافرة جدا قد عينوا منها جزء كثير للميره لخزينة السلطان. وهذه الأوبرا مخصوصة في مدينة باريس فبقي المرسح مقدار ثلاث ساعات ثم رجعنا إلى محلنا.

* * *

حفلة الرقص

وبعد مضي كم يوم أتى إلى عندي مدخل القصاد وعرفني أنه سيلعبون مرسح آخر في صراية السلطان ودعوني إلى ذلك لأجل بسطي وانشراحي. وأنهم يجلسوني في مكان واحد مع السلطان وعن يمينه يكون إقرباؤه وأكابر دولته وعن يساره قصاد الملوك، وأني سأتقدم عليهم كلهم بجلوسي قرب الملك المذكور. فشكرت فضله وفضل السلطان كثيرا ووعدته أني أحضر لأن هذا غاية أربي أن أحظى بمعاشرة الملك، وإنني أرى مثل هذه المتفرجات التي لا تصير عندنا. فثاني يوم أرسل المدخل واحدا من أتباعه يدعوني فمضيت إلى سراية السلطان فبعد أن تغدينا وتعشينا هناك عند مدير السلطان أدخلوني عند المساء إلى ديوانخانه أخرى بجانب تلك الديوانخانه التي للملك. وهذه الديوانخانه جعلوها لأجل الرقص والجمعيات، وهي واسعة ومكلفة أكثر من الأولى التي رأينا فيها المرسح، فحيطانها من المرمر الملون و كله مذهب ومزين بالتصاوير العجيبة، والكراسي فيها أربعة صفوف حتى إلى السقف الواحد فوق الآخر، وكل صف أعلى من الصف الأول والدرابزون كذلك جميعها من الرخام الأبيض المطعم بالذهب

وفي الأخير الدرابزون كذلك من الرخام الأزرق بلون البحر. وكل شيء في هذه الديوانخانة كان جميل يشرح صدر الناظر إليه.

وكان جاء إلى هذه الخانة جملة نسوة أكابر بلباس ظريف مستغرق في حجارة الجواهر، وكان لكل واحدة منهن موضع. فلما وصلت إلى عندهم أتوني بكرسي وأجلسوني نحو مقعد السلطان بقرب كرسيه على يساره. وكان من جملة الخلق في هذا الموضع ما لا يحصى أكثر من الأول وكلهم أكابر الدولة ونساء الأكابر، ثم في أثناء ذلك قدم السلطان وجلس على كرسيه، وعن يمينه جلست بنت عمه[1] وعن يساره ابنة عمه الأخرى بثياب مستغرقة في الجواهر واليواقيت، وكنت أنا في جانبها.

وكان في وجهنا ستر بديع مصنع بالنقش العجيب فلما رفعوه رأينا المكان الذي يلعبون فيه ويرقصون. وهم أنفار بغاية الجمال حسان الوجوه والأبدان[2] كأنهم الشمس في جلائها. وكانوا قد صوروا الشمس وهي طالعة من أفقها وجعلوا جرمها من الذهب مقدار الصينية الكبيرة المشغولة بأنواع الصناعة الزائدة، وأشعتها لا تقصر عن أشعة الشمس ووراءها عدة شموع لا تعد ولا تحصى تلتهب كأن أنوارها أشعة الشمس الخارجة منها. وكان هناك أرباب الموسيقى، فجعلوا يلعبون في أنواع الآلات وكذلك الذين في المرسح كانوا يرقصون، وهم أولاد الأكابر والأمراء والزعماء منهم كلهم أمثال أقران في القدر والقامة واللبس والكسوة والصورة والسن، كانوا يلعبون على دق النوبة ثمانية ثمانية في زي واحد ولبس واحد مزركش بالمخايش على أنواع مختلفة وأثوابهم كلها ديباج، وكانوا مشكلين في رؤوسهم بالريش المصنع في برانيسهم مما يزيد في حسنهم كثيرا، ثم أنهم لعبوا في المرسح على هذه الحالة كل بنوبته،ومنهم من

---

(1) يذكر النص الفرنسي اسمي هاتين الاميرتين ويتعلق الامر بالاميرة (Charolais-Conde) وهي بنت لويس الثالث أمير كوندي و أصبحت عشيقة الملك لويس الخامس عشر بعد زواجه، اما الاميرة الثانية فهي (La Roche - sur - Yon - Conti) وهي التي كان يجلس بجانبها السفير العثماني، ويستغرق النص الفرنسي في وصف جمالها وحليها وزينتها.

Veinstein, p.118 - 119.

(2) تحاشى النص العثماني والعربي استعمال عبارة "وجوه الملائكة" الواردة في النص الفرنسي. النص العثماني، ص. 118.

كان بزي مضحك وكل ثمانية كانوا نوعا غريبا عن الآخر ومخالفا وكانوا قلدوا في ذلك المرسح رجلا باع بستانا وآخر اشترى وظهر في البستان قتيل وأحضروا الرجل الباليه بالقتل وغير أشياء لا يقدر أن يصفها إلا بالنظر. وكان لعبهم في المرسح من العجب العجيب الغريب حتى فرغوا من ذلك وانتهوا ورجعوا بعد رجوع السلطان إلى مكانه وأنا كذلك توجهت إلى محلي.

* * *

سانقلو

وبعد ذلك عرض علي الوصي مدبر المملكة ودعاني إلى صراية كانت له بعيدة عن عن المدينة مقدار ساعة يسمونها سانقلو[1] كانت والدته [2]ساكنتها وأن هناك بستانا واسعا ومنتزها. فقبلت دعوته وتوجهت معه إلى ذلك الموضع من مدينة باريس إلى الصرايا المرقومة ماشيين بين جناين وبساتين وخضرة وأزهار وأشجار عالية مقصوصة ومنهدمة أشكالا وأراضي كلها مفروشة بأنواع الزهور والمروج فعين الطريق لم أر له شبيها، حتى وصلنا إليها فرأيناها في غاية البناء لا نظير لها في التوقيع والشراحية. ثم دخلناها ودخلنا سائر طبقاتها وأوضها من مكان إلى مكان، وكان أكثر أوضها مغشى بأنواع الثياب المقصبة الخالصة ومزينة بالألوان المتحفة والتفاريق والغرايب والعجايب.

فبعد النظر والتأمل في محاسنها باشروا لنا في الغداء. ثم نزلنا إلى البستان المزبور إلى عند حوض ماء كبير دائرة أنواع الأشجار الملونة، وكذلك داخل الحوض المذكور فوارة ماء، يتصاعد الماء منها بكثرة يصب في ميازيب فتسكب في الحوض المرقوم، والفوارة المذكورة مقدار قامتين في العلو، فسألتهم فوق هذا الماء كم يبلغ

(1) يعود تاريخ بناء قصر سان كلو (Saint Cloud) إلى القرن السادس عشر وقد تم اقتناؤه من قبل شقيق الملك لويس الرابع عشر سنة 1658 وتحول الى قلعة ما بين 1676 و1678.

(2) يتعلق الأمر بالأميرة (Charlotte- Elisabeth) أم الملك لويس الخامس عشر. وكانت تزوجت فليب الأول، دوق أورليان، أخ لويس الرابع عشر في سنة 1671، وتوفيت في سنة 1722. وقد اشتهرت على الخصوص برسائلها عن بلاط لويس الرابع عشر ووصي ابنها. وكانت قد اعتذرت عن استقبال السفير العثماني.

من العلو، فأجابوني إلى مائة قدم وهي خمسون ذراعا ولكن صب هذا الماء كان غريبا لأنه في شروق الشمس يظهر فوق الحوض كقوس قزح كاملا لا فرق فيه، وحققوا لي أن في كل بلاد فرنسا لم يوجد فوارة مثل هذه.

ثم رأينا الحوض الآخر تعلو قدر قامة إنسان خشبة غليظة ودائر هذه البركة من سائر الحيوانات والطيور من النحاس المطلي بالذهب، فإذا أطلقوا الماء في ذلك الحوض ترى كل حيوان وطير ينطق مثل لغاته بلا فرق وحوض آخر من الرخام الأبيض في موضع مرتفع قليلا منفس وفي وسطه قدر ست فوارات، وكان فيه صورة تنين فاتح فاه يبتلع الماء كله، فكنا نتأمله بالانشراح الزائد لأنه شيء غير منظور لمثلنا كل الوقت.

وكان في هذا البستان أنواع الأشجار الغزيرة وكلها على علو واحد متصلة في بعضها كالجدران والماء منحذر ومقسوم لها، فكنا نمشي ونشاهد ذلك بينها، وكنا نرى من كل أطراف البستان الخضرة العالية مقدار الرمح من الأشجار المتساوية في بعضها وأغصانها النافذة إلى الخارج كانت مقطوعة على السواء بهذا المقدار من الصناعة حتى كنا نظن أنها بناء واحد، فالبستان عرضه مسافة أربع ساعات لأننا ركبنا في العربابة حتى تنزهنا فيه، فمكثنا مقدار ساعة ونصف فيه، وطوله ست ساعات.(1)

* * *

فرساي

وبعد ذلك تشاور الجماعة فيما بينهم أن يأخذوني إلى صراية يسمونها ورساليه التي لا شبيه لها ولا نظير في الدنيا. فبعد المذاكرة والمشاورة عزموا في الحين تمشينا مع الرفق المذكور وأتباعنا معنا إلى نحوها، فوجدنا في الطريق الموصلة إليها صراية أخرى عظيمة البناء معظمه لحضرة السلطان والبساتين

---

(1) يعتبر النص الفرنسي أكثر وضوحا في باب قياس المسافات حيث يقول:
"يبلغ طول هذا البستان اربعة مراحل".

Veinstein, p.121.

حولها في غاية الحسن، ويسمى هذا الموضع المدون[1]، وكانوا قد اختاروا هذا المحل وانتخبوه لنتغدى فيه[2]، وهكذا اتفق الرأي أننا تغدينا هناك ومكثنا ونمنا تلك الليلة هناك بكل فرح وسرور.

وفي الغد توجهنا سحرا وذهبنا في عزيمتهم إلى أن بلغنا إلى محل مدون ضاحي النهار، وشاهدنا هناك صرايا عجيبة يعجز عنها كل انسان أن يصفها بلسان. وهي مبنية في مكان مرتفع شامخ كنا ننظر منها إلى جميع مدينة باريس. وبعد الغداء[3] نزلنا في عرابية السلطان إلى البستان نسير فيه، وكنا نتأمل في ترتيب أشجاره وظرفه وخضرته وألوان أزهاره. فحقيقة أننا نسينا البستان الأول و تراتيبه الفائقة الذي كنا دخلناه سابقا وهو سانقلو. لأن هذا المكان يشبه جنة الأرض ولو كانت في الدنيا جنة لقلت أن هذه هي الجنة[4]. فمكثنا في المدون لوقت العصر ثم قمنا ورجعنا في الطريق إلى نحو ورساليا وعند المساء وصلنا إليها.

وقريب من المساء وصلنا إلى سراية ورساليه، فالصراية المذكورة هي بغاية الوصف والجمال وبناؤها عجيب من أعجب شيء في الدنيا وهي تشرح الصدر من كل جانب وتدفع الهموم وتزيل الغموم، وإني لقصير اللسان ومعتذر البيان في ذكر أوصافها الجميلة وأنواعها البديعة ولا القيل عنها لأنها أعجب شيء يوجد في العالم وكل إنسان يصفها بأي نوع كان فهو كاذب لأن شرح وصفها لا يمكن أصلا.

ففي اليوم المقدم ذكره حين كنا في الصراية المذكورة تقدم المتوكلون فيها إلينا وسألوني عن خاطري ودعوني إلى البستان[5] أن نسير فيه، فأجبتهم لذلك لنظام ما هنالك، فجعلوني في كرسي على بكرتين كانت تسحبه أربعة رجال إلى محل يظن

---

(1) هو الحصن الذي تم بناؤه من قبل (Mansart) سنة 1706 ورصم ليحتضن المرصد

(2) يتعلق الأمر في النص الفرنسي بعشاء .p.121

(3) النص الفرنسي يشير إلى العشاء ولعل النص العربي أنسب على اعتبار إشارته إلى مكث السفير بالبستان إلى الثالثة بعد الزوال.

(4) لا يوجد في النص الفرنسي ما يشير الى تشبيه القصر بالجنة.

(5) يتعلق الأمر بحدائق فرساي التي صممت من قبل (Le Notre) وشرع في تهيئتها من قبل (Le Brun) المكلف بتزيين حدائق القصر في سنة 1666.

الناظر إليه والواقف عليه أنه مميز عن صراية السلطان لغزارة أشجاره المفرحة وأزهاره الفايحة وتقاسيم غراسها على النواحي المعينة المناسبة لبعضها. وهي مقسمة على مرور المياه، وكل ممر شكل وهو مكان لا يوصف، وجميعها متناسبة في الطول والعرض والعلو والقد وكأنها شجر واحد. وفي البستان المرقوم حوض كبير وفورات وطوج تخرج الماء منها تدخل في صور حيوانات متعددة مختلفة ويخرج الماء المذكور من أفواه الحيوانات المذكورة وعدتها 39 فوارة وكل واحد يدل لسان حاله عن حكايته المعلومة منه. وقد وضعوا على قفاهم ألواحا سطروا فيها تلك الحكايات المقصودة منهم.

ثم أننا جئنا بعد ذلك إلى موضع آخر مزين مشتمل على اثنين وثلاثين عمودا[1]، وكل واحد تخرج منه فوارة تسكب ماء بمقدار الأنملة. ثم ذهبنا إلى حوض آخر كبير في وسطه مائة وخمسون فوارة الواحدة منهم تنفذ منها الماء إلى علو أربعة وعشرين[2] قدما والباقي حولها يدفعون الماء علو متدرج الواحد أدنى من الآخر، وخروج الماء منها على هذا الأسلوب يشبه لشجرة سرو مصنوعة من فضة لأجل بياضها النقي الصافي، والماء خارج متصاعد من هذه الفوارات أقوى من الأنامل.

فمن هناك أيضا توجهنا إلى مكان آخر فيه حوض دائر جهاته من الرخام السماقي الأحمر والأخضر[3]، وله من الدرابزون اثنين مطوق بهما بأطواق من الذهب الإبريز النقي المصنوع بصنائع عجيبة، ومن طرفيه كانت تسكب الماء من علو مائة وعشرين قدما ومن غير الشادوران الذي في بستان سانقلوا ما رأينا قط مثل هذا لكثرة مائه وصعوده وهبوطه وعظمه في نزوله وزبده وأصواته ما لا يتصور بفهم كأنه ماء فضة مسكوبة من شجرة فضة وكانت المياه تنفش وترغي كثيرا.

---

(1) في النص الفرنسي يضيف "تسند الأقواس الاثنين والثلاثين".

(2) يورد النص الفرنسي مقاييس مختلفة فيذكر أن عدد الفوارات هو 235 فوارة مقسمة الى ثلاث طبقات، أما فوارات الطبقة الأولى فتقذف الماء إلى علو 80 قدما، أما فوارات الطبقة الثانية فتقذفه إلى علو أقل، وفوارات الطبقة الثالثة إلى علو أقل من الطبقة الثانية.

Veinstein, p.123.

(3) في النص الفرنسي يشار فقط إلى الرخام دون تحديد ألوانه.

ومن هذا الموضع توجهنا إلى مكان واسع منتزه كذلك فيه حوض أكبر من المذكورات أولا. وفيه كانت تسير القوارب على عشرة مقاذيف وكان مركب فيه من الفوارات صفان تنزل الماء منها مثل الأنامل، فإذا قصدوا اللعب بهذه الفوارات كانوا يصيروها تصعد وتهبط في أطراف الحوض على شكل أشجار السرو المصفوفة من كل جانب. ويوجد في ذلك المكان ثلاث أماكن أخرى بثلاث فورارت، وفي كل واحدة منها خمسة وعشرون[1] لولبا كانت المياه تنفذ منها بقوة زائدة وليس ذلك على خط مستقيم، بل على شكل الأغصان المائلة المنحنية من جانب إلى جانب إذا حركها الهوى.

وسرنا بعد ذلك إلى حوض آخر كبير فيه شادوران كبير مقدار القصر وعلى أطرافه أكثر من مائة شخص مشكلة من أنواع الحيوانات من طوج مصنوعة ومصفوفة بالصناعة العجيبة لأن في خروج الماء وهبوطها كنا نشاهدها مشاهدة حسنة ويحصل للناظر منها لطافة وسرور جزيل. وقد توجد أحواض في ورساليا وكذلك مصنوعة بأنواع مختلفة، وما رأينا قط مثلما شاهدنا في هذا البستان. وأما هذه المياه جميعها مسكوبة من هذه الفوارات المرقومة تجتمع في آخرها عند طرف البستان على شكل صليب ويمر خارجا من البستان.

* * *

تريانون

وفي هذا البستان توجد العمارات الكثيرة، وعلى أطرافه توجد صرايات أخر يسمونها تريانوم[2]، ففي الغد ذهبنا إلى هذه في قارب، وهو القارب الذي يركبه السلطان، فهذه مبنية على جانب النهر الأيمن حيث ينتهي جريان الماء، وهي في غاية الجمال معمورة على طبقة واحدة بخلاف عادة بلادهم وبستانها شكل آخر عجيب والفسقيات التي فيه كذلك عجيبة غير ممكن أن أحصي وصفها.

---

(1) في النص الفرنسي: " خمسة عشر"، ص. 123.

(2) كان يسمى تريانون الرخام (le trianon de marbre) يسمى فيما بعد بالتريانون الكبير وكان قد بناه لويس الرابع عشر 1687 - 1688.

فبعدما شاهدنا هذا جميعه رجعنا للقارب ونزلنا فيه إلى جانب النهر الأيسر ورأينا في المنتهى كذلك صرايا عاملين فيها خانات للوحوش والطيور وبها أيضا تماثيل الوحوش والطيور من الأحجار. وقدام هذه الأماكن يوجد ميدان مدور[1]، وفي وسطه حوض وفوارة ويحيط بهما دار يدورها حائط من حجر، وفي نصف هذه الخانات مشيد قصر عالي وعلى جانبه نحو من ستة[2] أوض صغار، وكنا ندخل في واحدة ونخرج من الثانية. وهذه الأماكن كلها منقوشة ومتقونة ومزخرفة بأنواع الصناعة بالألوان أكثر من الصناديق الهندية والطنافس الرومية الموجود منها مشغولا بالصرمة وغيره. ومن هذا القصر يشاهد الناظر له كل الوحوش والطيور في أماكنها وأسماء كل جنس مكتوب عليه، وفي الوقت الذي كنا فيه ما كانت موجودة ولكننا كنا ننظرها على صفتها المعلومة وأنواعها المختلفة المصورة طبق أصلها في ذلك القصر المذكور، وهي غريبة الشكل. وما بين القصر وطريقه والخانات كان مرصع بأنواع الحجارات وكانوا واضعين له قساطل ماء رفيعة غير ملحوظة إذا فتحوها كان يصير للناظر من الحاضرين هناك مسرة تنثر عليهم الماء فيزدحمون ويميلون من كل جانب. ولما نحن كنا عملوا هذا مع البعض من أتباعنا ولواحقنا والذين لحقونا ما كنا نعلمهم بالحال. ورأينا أيضا هناك أشياء تدهش العقول.

* * *

مارلي

وفي الغد ذهبنا إلى بستان آخر يقال له مارلي[3] فيه صرايا معمورة على جانب النهر الشرقي الذي في ورساليا، وهو مكان منشرح وجميل، وأقول لا نظير له وأظن أنه أجمل من جميع ما رأيته في السابق. ورأيت في بعض الأماكن الأشجار اللطيفة المصنعة والأغصان المقبية المصفوفة على الجانبين

---

(1) يقصد "مسور".

(2) في النص الفرنسي: "نحو خمس أو ست"، ص. 124.

(3) شيد حصن مارلي (Marly) زمن لويس الرابع عشر ما بين 1679 - 1686.

فوق بعضها بعض وترى كالقباب الخضر المرتفعة جدا، وكان ما يطير في الهواء من الطيور ويدب على الأرض من الوحوش تحت هذه القباب، ولكنه لا يمكن وصول المطر إليه، وهو بديع الأغصان ذلك الشجر كالقلال. والأماكن المذكورة مربوعة الجهات وأبوابها ولوازمها مزخرفة وكلها متسترة بأوراق الأشجار، وترى كل هذه الأشجار كلها على جملة أشكال وصور مختلفة متفننة، وهذا كله مصنع بترتيب الصناعات. هذا حد ذلك وشرح صور كل من دخل إلى هنالك وشاهده، فحقيقة الأمر كل من رآه من الناس زال عنه البأس وفارقه الوسواس، فتحققت أن الدنيا سجن المومنين وجنة الكافرين[1].

وبعد ذلك كله رأينا بقرب الصرايا المذكورة سلما من رخام أبيض عدده ستون درجة[2] مبنية لأجل الارتقاء للكشف على تلك الأشجار وغيرها، وهذا السلم واسع الدرج سالم من العوج بحيث أنه يصعد فيه عشرة أنفار سوا (كذا) جملة واحدة بحيث يمكنهم الصعود في ذلك وعلى كل[3] عشرة درج فوارتين من الماء من طرفي الدرجة وآخر السلم تجده مملوءا من الفوارات يصعد منها الماء. وهذا السلم المذكور يؤدي إلى بركة كبيرة تجري المياه إليها وهي متدفقة جارية بحسن صناعة مرتبة هكذا حتى أنه يتصور منه سلما من بلور، وهو غير ممكن يوصف شرحها الباصر الذكي الفهم لمن ينظر هذا كله.

وقد اصطنعوا أيضا سلما آخر بخمسة وعشرين درجة في موضع آخر، وعلى كل طرف منها توجد لواليب مختلفة الأشكال تسكب المياه منها بسرعة، فمن عظم خروجها ينشئوا منها رغوة زائدة ويظهر من هذه الرغوة سلما ثانيا. وفي مشاهدة ذلك نظر جميل وحسن وافر في الغاية. وفي مكان آخر توجد فوارة أخرى غليظة كغلظ الأدمي مصنوعة من رخام أبيض ملصوق من على وجهها ومن فوقها صنما واحدا، فإذا كانت المياه تخرج من الثقب الذي ما بين النافورة

---

(1) في النص الفرنسي : وبمشاهدة هذا البستان استوحي هذا التعبير وهو من حديث نبوي رواه مسلم في حديثه عن أبي هريرة قال، قال النبي: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

(2) في النص الفرنسي: "72 درجة". p.126

(3) في النص الفرنسي : "وعلى كل خمسة أو عشرة درجة"، p. 126.

والصنم كانت تتصور منها قبة كقبة جامع صغير، ولم نتمل قط بمنظر مثله أبدا، على أنه في تلك الصرايا أحواض ونافورات كثيرة غير أنني مثل المذكورة لم أر قط.

وبما أن البستان المذكور في محل مرتفع فغير ممكن أن أحدا يتصور عقله وفهمه مقدار المصاريف المنفقة على إتيان هذه المياه المذكورة المعروفة من لاسن (la seine) التي هي أوطأ من مائة وخمسين دراعا[1] من ذلك الموضع إلى محلها المرقوم. فغير ممكن شرحي وصفها وصنعتها المستعملة منهم في حين يصعد الماء المرقوم إلى المكان المرتفع بهذا المقدار، فقبل كل شيء الظاهر والمرئي أنهم أقاموا عدة متاريس لأجل صدم المياه وجريانها و عملوا لها خندقا لتسكين الماء الجاري من لاسن وبعده عملوا أثنى عشر دولابا كبار بحيث يدور الماء بها ماء النهر المرقوم له تصاعدا بالماء وهلم جرا هكذا إلى موضع مرتفع إلى أن ينتهي إلى خمسة صفوف قنايات من حديد في غلظ الأدمي كل واحدة وممتدة إلى مكان عال وفي آخرها بكرة لأجل اجتماع لماء هناك وذلك لكي يطلع الماء بعزم شديد ويسرع إلى الجبل، وهي مرتبة على علوه وفي آخرها حوض كبير يجتمع فيه الماء المصعود بالقوة والآلة المرقومة إلى رأس جبل قد شدوا الحوض بوثاق الحديد لوفور الماء وهذه الرباطات كانت تتحرك دائما إلى قدام وإلى خلف وتلزم الماء بالصعود من كل ترومبا، ويمتد الماء المزبور من جانب الحوض إلى مكان ينتهي إلى دواليب أخرى بالوثايق القوية، فمتى وجد الماء فيها تحركت تارة يمينا وتارة شمالا، فإذا انحصر الماء المذكور واجتمع بهذه الكيفية يندفع لتلك القنايات العلوية من درجة إلى درجة يتصاعد إلى مقدار 150 مائة وخمسين قدما. ولم يمكن أن أصف الحذاقة مع الصناعة التي استعملوها بهذه الدقة الغريبة والقوانين العجيبة إلى أن يستلذ الرأي لذلك إذا شاهد ما هنالك إلى أن ياتي الماء المذكور إلى البستان المزبور بمكان يسيل منه الماء بحيث يسعه كأن المكان الذي يسيل منه في نزوله يشبه سيلات إسلامبول الذين يسمونها الأربعين عين. وقد صنعوا القنايات الكثيرة لمجيء الماء المذكور لهذه السيالة. ومثلما ذكرنا أعلاه استعملوا من الدواليب والقنايات فنونا مفننة حتى يندفع

---

(1) في النص الفرنسي "مائة وخمسون قدما" .p. 127.

الماء إلى السيالة، ولعمري إن السيالة المذكورة لا شبيه لها ولا سمع بمثلها في الأقاليم كلها، ولم نسمع أن لها مثيل أبدا. وإن أتباعي صعدوا إلى أعلى رأس هذه السيالة من سلم له خمسة وعشرون درجة فرأوا من العجائب الغريبة في كنهها وصفتها ومقدارها.

* * *

قصر فرساي

ورساليا هو موضع فيه أربعة بساتين وأربعة قصور وطوله سبعة أميال دورانا، ومن كل جانب ترى العلية مصفوفة بالأجران من الرخام، ويوجد أيضا فيها الجواهر المعدنية والحجارة المعلومة من اليشم وحجارة معلومة عندهم أيضا لا نعرفها لغرابتها غير معلومة عندنا. وفيه شبابيك كبار تكشف على البستان. وفي الجانب الآخر مرآة إذا نظر الناظر فيها يرى العلية أكبر مما هي. فانظر إلى العجائب والغرائب التي تدهش العقول ويكل فيها الوصف ويقصر فيها الطرف. وإذا العلية مزينة بأنواع الزينة وكذلك حيطانها مستورة بالمخمل. وغالب بلاد فرنسا حيطانها كذلك مستورة بالقماش المتمن، ولكن حيطان مدينة ورساليا مزينة بالطنافس المنسوجة بالذهب الصافي، ورأينا غير هذه المذكورة آنفا فرشتان للسلطان في غاية الوصف عن وصفها يكل الطرف، وأورانا ساعة كانت موجودة هي كصورة الديك المصور يفتح فمه ويتحرك كأنه هامم في الطيران وكان يصيح ثلاث مرات عن الدق كأنه حي، وبعد هذا كان يفتح بابان ويخرج من كل واحدة صورة رجل الواحد في يده ترسا والآخر مطرقة فماسك المطرقة كان يضرب على الترس الذي ماسكه الآخر على أربعة جوانبه، ثم أنهم يدخلون إلى داخل الساعة وفورا يغلق البابان من تلقاء ذاتهما، وبعد قليل يفتح باب آخر ويخرج منه سلطان جالس على منبر ويفتح باب آخر ويخرج منه ملك في يده تاج يضعه فوق رأس السلطان المذكور، وعلى رأس الساعة المذكورة يصير شكل أنغام متفرقة وترتيب كالنطير المطرب، فبعد ذلك كله يرجع الملاك إلى

خلف، ثم كانت تدق الساعة المذكورة. فما رأينا ولا سمعنا مثل هذه الساعة[1]، وبالجملة أننا رأينا في هذه الصراية المذكورة الأمور الغريبة والأحوال العجيبة لا نقدر أن نصف جميع ما رأينا. وقصر مدينة ورساليا لا مثيل له في جميع ما رأينا، ولا مثيل له في جميع نواحي الأوروبا (كذا)، وهذا هو معروف عند الكل في ممالكهم.

وكان معمور عند القصر اصطبلين أحدهما كبير والآخر صغير، وكل منهما يشتمل على بساتين وكروم وأوض[2]، وكل هذا مجموع سوية فيبان ذلك كله قصر كبير. والمكان الذي نربط فيه الخيل شكله غريب غير معروف في ديارنا، وهو معمورة بالحجارة الصلبة المتنوعة الشكل صناعتها غريبة، وسألت عن إتقان هذا وعن مقداره وحسنه بهذا المقدار ويكون أصطبلا لأجل رباط الخيل، فأجابوني أن السلطان صنع هذا حتى يقال إن أصطبل خيل سعادته أجمل من قصر سلطان النمسا، وما بالغوا في النفقة والمصروف على ذلك إلا بهذه النية، ورأينا أيضا جميع القنايات تجرى منها المافوق أماكن مخصوصة، وكان بقرب القصر حوض عظيم لأجل اجتماع المياه ويصعدوه بالآلات لتلك الأماكن المذكورة فيصعدوا بسلم أكثر من مائة درجة.

وعلى رأس هذه العمارة توجد بركة من نحاس وحولها خمسة قنايات مصطفة كل قناية تسع رجلا يدخل فيها، فالماء المذكور يجري في تلك القنايات ويجتمع في تلك البركة المذكورة أعلاه، وقد عملوا الطرقات تحت الأرض ليجري فيها الماء الخارج من البركة المذكورة، ويتوصل في القناة المذكورة إلى محلات على قدر احتياجهم لتلك المياه، وهذه المياه جارية ومصطنعة في مسافة نحو عشرة أميال، وقد جعلوا أيضا طرقات معلومة لجذب المياه بحيث يكون وصولها إلى بحيرة لم تزل طافحة بكثرة الماء الواصلة إليها. وعلى هذه الأمور الغريبة والمصانع

---

(1) يقفز النص العربي على عدد البنايات التي لا تعد ولا تحصى والتي شيدت، يقول النص الفرنسي، بأشكال هندسية متناغمة. p.129.

(2) يقصد "غرف".

العجيبة التي هي من غرائب عجائب الدنيا كنا نتنزه هناك وقد مكثنا في هذه الأماكن المذكورة خمسة أيام[1]، وبعد ذلك رجعنا إلى باريس إلى مكاننا.

* * *

باريس مدينة العلوم

وقد توجد في ذات باريس بنايات كثيرة تكاد لا تحصى حتى أنه غير ممكن وصفها بذواتها على تفاصيلها وألوانها. وقد رأينا هناك بستانا مختصا بالملك مقسوما بمساكن كثيرة: فالمسكن الأول لأجل صنعة تداوي الجراحة حيث أن كل أطباء هذه الجراحة الصناعة الذين يشقون مفاصل الحيوانات ذوات الأربع والطيور والأرادم أيضا لهم أوض مخصوصة بهذا متفرقة عن بعضها بعض، وعملوا أيضا تشريح الفيل وعلقوه بالسلاسل. ولهم صناعات كثيرة في ذلك حتى أنك لترى الشخص أو الحيوان يبان كأنه واقف على رجليه ما عدا أنه مجرد من لحمه وجلده وأدخلوا في كل مفاصله شرائط من حديد رفيعة لتمكث الأعضاء قائمة متشبك بعضها ببعض. وبهذا النوع صنعوا الاختراعات بوافر الحذاقة حتى هذا الحد وصلوا، فإذا رأى الناظر ذلك علم وعرف عدد العروق والمفاصل وهكذا باقي الحيوانات بهذه الصنعة والصفة بهذا التشريح عينه موجودة وكثيرا من الجثث المجردة من لحمها من رجال ونساء وأطفال بحيث ترى عيانا جميع الأعضاء الواحد بعد الآخر، وعملوا أيضا من الشمع العسلي لحما وعروقا ومفاصلا مفترقة عن بعضها البعض.

ونية أهل الجراحة الفاعلون ذلك حتى أنهم يعملوا ويفهموا تلامذتهم دقة الحكمة والفطنة بأدنى سهولة دروسهم في ذلك، وجميع ما ذكر مصنوع بهذا الصنع تقريبا لمتعلم الحكمة حتى أنك ترى بقية العروق وبقية اللوازم بألوانها وصفتها وأشكالها كأنها حية، فهذا شيء ما سبقهم إليه سابق، ولا يمكن تصوره دهنا من حذاقته وزود فهمه فكيف لا يصوغ لنا للإطناب أن لا نزيد في مدح

---

(1) في النص الفرنسي "وقد مكثت ثلاثة أيام في فرساي عدت بعدها إلى باريس"، ص. 131.

هذه المعرفة التامة لا سيما لأجل الاجتهاد في إتقان الحكمة وأخذهم الأموال بمعرفتها وإتقانها وفاقوا بذلك على أربابها.

وبعد أن خرجنا من محلة الجراحين ذهبنا إلى محلة الأطباء حيث أن لهم مسكن خاص بهم، حيث أن كبيرهم المعلم الطبيب المتقدم ذكره في هذه الصنائع. كان البستان المرقوم مخصوصا بهذا المتقدم ذكره. أيضا ذهبنا إلى محل محفوظ فيه جميع الأدوية كلها توجد هناك لسائر العلل والأمراض بحيث أنك ترى خزائن عديدة كل واحدة مملوء في القناني والراح، والأدوية والشرابات الموافقة للطب المجربة المخترعة وكل شيء يناسب للحكمة موجود في أماكنه داخل في خزائنه. وقد جمعوا ذلك في الأوض المرقومة من بر وبحر وأشجار وأحجار ورتوشات ومعادن التي لا تكاد توجد في أراضيهم قد جمعوها من أقطار الأماكن والبلدان الغريبة جدا التي لا يمكن إدراكها في العقل. وجميع هذه الأشياء مسطرة عندهم في كتبهم بصورها وذواتها وأسمائها وأماكنها. وجميع هذه الأشياء مصنفة من حول الأوض مصفوفة، والأوض المرقومة هي داخل البستان المرقوم. ولكن إن تكن عشبة نافعة موجودة في بلاد العجم أو في بلاد اليزبيك[1] أو في يكى دنيا[2] أو الهند والسند وغيرها إلا وهي مغروسة عندهم بهذا المقدار، حتى أن الحشيش والأشجار المخصوصة في أماكنها أحضروها وغرسوها في ديارهم. فانظر هذه القوة والاهتمام في الأمور مما يكل عنه الطرف ويعجز في تعريفه الوصف وليس الخبر كالعيان، والذي ما رأى ولا شاهد لا يسع عقله هذا القول المنقول.

وكون أن إقليم باريس المذكور أبرد من بلاد الهند عينوا مكانا لحفظ مسكن من كل الأطراف ومحوطة بالزجاج في أسفل هذا المكان مكان فارغ بحيث أنهم يوقدوا فيه نيرانا لامتداد الحرارة الموافقة للأشجار، وهكذا صنعوا في ترتيب الأشجار المعلومة عندهم من بلاد الهند وغيرها وغرسوها في بلاد

---

(1) يقصد الأوزبك (Ozbek).

(2) يقصد أمريكا (Yeni dunya) أي العالم الجديد.

الباردة فحصل للأشجار أن أخذت الحرارة وذلك بمعرفة المهندسين والحكماء منهم فإنهم يعرفون غاية الاهتمام فيما ذكر لينتج من معرفتهم بذلك إتقان هذه النباتات كلها.

* * *

في وضع الطنافس

ورأينا في بلاد باريس[1] المذكور قصورا وكنائس وتكيات عديدة لأجل نسج الطنافس المعدودة للسلطان ولا يبيعوا منها لأحد بل هي مخصوصة له[2]، والمتوكل على ذلك المكان مراقب محافظ لذلك، فإذا أراد أحد أن يعمل له طنفسه يأخذ إذنا من المتوكل، فإن أذن له عمل له بعد دفعه القيمة وإن لم يأذن فلا يعمل له، ويتكلفون على ذلك كلفة كبيرة لما يلزم لها من الصرمة والأشكال الملونات وغيرها. فإذا أراد أحد أن يعمل طنفسه للتفاخر بها مشكلة بأنواع الأزهار والصور فقط فربما يتكلف عليها نحو من ألف وخمسمائة غرش وربما بلغت لألفي غرش. وإذا أراد تزيينها بالقصب والصرمة والذهب فيتكلف عليها أكثر مما ذكرنا. وبهذا الخصوص رأيت مناسبا أن أذهب لأنظر لذلك ليتوضح لي حقيقة ما هنالك، فعلموا مجيئي إليهم، ففرشوا أرض تلك الأماكن وزينوها وصمدوا حيطانها بما كان عندهم من الطنافس الموجودة، وكان مكانهم واسع للغاية، فكانوا ما دين عليه أكثر من مائة طنفسة على الجدران، فتحقق لي من هذه المشاهدة الحيرة والدهشة مما عاينت من حسنها وألوانها وأزاهيرها المنسوجة على الطنافس إذا

---

(1) يقدم النص الفرنسي لهذه الفقرة بالقول:
"القصور التي لا تعد ولا تحصى والكنائس والمكتبات والأشياء النادرة والعجيبة التي لم أرها قط إلا في باريس" p.132.

(2) يتعلق الأمر بـ (les gobelins) و هي المحترفات التي كانت موجودة في باريس منذ هنري الرابع الذي استقدم إليها عددا من صناع السجاد الفلامنك. وقد حولها كولبير (Colbert) في سنة 1661 الى محترفات ملكية لاثاث العرش و اشتغل بها صناع السجاد بالإضافة الى عمال و حرفيين ينتمون الى قطاعات حرفية أخرى. وقد عملت هذه المحترفات بعد مرور السفير العثماني محمد أفندي على وضع سجاد يمثل صورة لهذه السفارة.

نظرها الناظر تحقق أنها لا نظير لها[1]، وكأن فيها روحا من شدة حسنها كأنها مرآة بلورية منسوجة ومصورين في الطنافس المذكورة تصاوير أشخاص بيديها ورجليها وعينيها وجفونها وحواجبها وشعر رأسها ولحيتها بحيث إذا رأى الناظر ذلك ظن أن أدميا ذا روح ملصوقا فيها من حسن خدودها وقدودها حتى أنه لا يصدق الرأي أن يوجد في الدنيا كذلك لحمرة خدودها وزرافة قدها وإذا نظر ذلك ماريس[2] وبهذار[3] لاعترفوا وتحققوا أنهم عاجزين عن هذا المقدار. وقد ترى وجه التصاوير عينها البعض منها بشوشة والبعض كئيبة كأنهم يظهروا الخوف والبعض دارفة بالدموع والبعض مستضعفة من أجل مرض، فإذا نظرت ذلك تعلم وتتيقن وتفهم حالة كل صورة من الصور المنسوجة كحال الأحياء من الناس. ولعمري أن كلما وصفت شيئا أنا فيه متحير الفكر لأنه لا يمكن تصوره لكثرة حسنه وإتقانه مع مشاهدتي له، فكيف أن السامع يتصور ذلك خبرا وعقلا.

ورأينا الألات التي من فوقها يسحبون الطنافس التي هي أكثر من مائة آلة وصناع ذلك خمسة او ستة مائة نفر. فأما سدة الطنافس فهي من صوف ولحمتها من حرير، وبعض الأحيان يصنعون معه قلابودان وصرمة واللون الذي يريدون أن ينقشوه ويجعلونه على بطانة مبلولة بالزيت ويجعلون تحته الأزهار والصور التي يريدون أن يشتغلوها مع الألوان المعلومة وما عدا ذلك فهو مرسوم ومعلوم عندهم في فكرهم يستخرجونه. وفي غالب أشغالهم ينظرون إلى المرسوم وإلى الشكل المرسوم المصنوع عليه.

* * *

---

(1) في النص الفرنسي :

"لا يمكن ملاحظة أي فرق بينها وبين الزهور الحقيقية التي توضع في القناني (les bouteilles)"، وفي ذلك إحالة على عادة الأتراك في قطف الزهور ووضعها في مزهريات على طاولة من خشب يقضون وقتا طويلا في التأمل فيها حسب انطوان كلان (Antoine Galland)، p.133.

(2) يقصد (Manes) وهو قوسس المانوية وكان كاتبا وفنانا ولعل الاستشهاد به في طرف محمد أفنوي يعود إلى التأثير الذي مارسه مانيس على المنمنمات الإسلامية خاصة تلك التي تنتمي إلى مدرسة بغداد. EI.

(3) يقصد بك زادة (Behzade) وهو فنان إيراني هاجر إلى تبريز وأثر بتدريسه في مدارسها على تطور الفنون الفارسية خلال القرن السادس عشر. ينظر EI.

وقد يوجد أيضا في بلاد باريس موضعا يسمونه مكان الصناع مخصوص بالسلطان[4] ومن هذا أيضا فهو غير ممكن أن ينباع منه شيء من غير إذن أو معرفة المتوكل. ومضينا أيضا لننظر بأي صنعة يصنعون المرايات، فوجدنا في الخان المذكور أكثر من مائتي آلة بهذا الخصوص وربما يزيدون على الألف صانع. فأولا يصنعون المرايات من فوق الآلات ملتصقين بالطين ثم يوضعون مرآة ثانية فوق لوح ملصقة كالأول أيضا فيما بين المرآتين يرشون من الرمل بهذا الشيء ثم يسكبون عليه من الماء وأربعة رجال يبتدون في حركة المرآتين الواحد حدا الآخر إلى أن يجلبوا المرآتين ويجلوهما وينقوهما من كل عيب. وبعد ذلك فيجعلون من نواحيهما الأخرى الجلاء، فمتى يكون الوجهان قد انجليا على ما ينبغي فيضعوهما فوق التبن احترازا عليهما ويبدأوا يفركوهما برشوش أسود مع آلة متوسطة مخصوصة لذلك ثم يضعوا لهما النورانية، وقد رأينا أيضا مرايا مختلفة لا تحصى عددا والمتوكل على ذلك أورانا اثنتين ثم قال لنا: "أننا بذلنا مجهودنا لننظر هل نستطيع أن نعمل المرايات أوسع من ذلك فما أمكن، فهذا الحد الذي اتصل إلينا. فواحدة هاتين المرآتين كان طولها مائة أصابع وعرضها ستة وأربعين[5]. وكنا أيضا بذلنا مجهودنا -قال المتوكل- لنرى هل يمكننا لنعمل أكبر من هذه، وها هو الذي عملناه وما قدرنا نعطيها العرض والطول والوسع المناسب لطولها، فمن حيث أنها طويلة جدا فننقصها من العرض قليلا"[6]. فأما طولها فكان مائة وأربعة عشر باهم وعرضها ثمانية وأربعين، فكل واحدة من هاتين المرآتين الكبيرتين مقدار الإيوان الواسع. وأما على حسب عادتنا فالدراع

(4) يقصد مصنع (saint gobain) الذي كان نتيجة اندماج مصنع المرايا في Faubourg (de Saint) Antione (المحدث سنة 1695) ومصنع مرايا فرنسا المحدث سنة 1665.

(5) في النص الفرنسي:" مائة وأربعين طولا وأربعة وستين عرضا"، ص.135.

(6) يظهر أن النص الفرنسي أكثر وضوحا من حيث الترتيب يقول النص الفرنسي: اما الاولى وهي في أربعة ومائة باهم طولا وأربعة وستين عرضا وقد قال لي أنه رغبة في إبراز الى اي مدى يمكن أن يكون حجم المرايا بلغت هذا المستوى. اما فيما يخص المانية فقد كانت من أربعة عشر ومائة باهم طولا وثمانية وأربعين عرضا"، ص.135.

الذي نحن نستعمله لأجل البناية فيكون أربعة وعشرون باهما على حسب عادة الفرانساوية. فالمراية الأولى على هذا الحساب كان طولها أربعة أدرع وثمانية بواهم أي ثلث وعرضها دراعين وستة عشر باهم أي ثلثي الدراع. والثانية كان طولها أربعة أدرع وثمانية عشرة باهم وعرضها دراعين.

* * *

بنايات وعادات

وحاصل الأمر انني رأيت مدينة باريس في السعة والبناء أكبر من مدينة القسطنطينية، ومن قال إنها من دونها فقد كذب لأني قد عاينت أكثر البيوت. فمنهم من بناية في علو يشتمل على سبع طبقات ومنهم ما هو مشتمل على خمس طبقات وعلى أربعة وثلاث طبقات. وفيها من الأمم والخلق ما قد شرحنا. وما رأيت مكانا خاليا من الناس ولا من السكنى في الدور والخانات والدكاكين والأسواق مع أني شاهدت من الازدحام في أسواقهم مع رجالهم ونسائهم وصبيانهم وغلمانهم شيئا مبالغا لأن نساءهم يختلطن معهم في الأسواق ويذهبن من محلة إلى محلة، ففي جميع النهار النسوة على هذه الحالة مختلطات مع الرجال يمشين سوى وهذا طبعهم وقانونهم. وقد رأيت شيئا غريبا أن النساء في بلاد باريس يفتحن الحوانيت ويتعاطين البيع والشراء والعطاء ويحرصن الدكاكين ليلا في الأسواق. ومع هذا أسواقها واسعة مبلطة بحجارة في الليل وعرة. وأغلب البيوت مبنية بالحجارة المنحوتة ويجعلون الأساس عميقا للغاية بحيث إذا كان علوا فوقه لا يميل بناؤه. وبيوتهم في الهندسة والقوانين ما شرحناه خصوصا أن نهر المدعو سن يجري في وسط باريس المذكورة على القوانين المعلومة على ثلاثة جزائر داخل المدينة، وهم يقطعون على الماء المرقوم بالجزيرة بالجسور من واحد إلى آخر. والجسور في غاية البناء والإتقان.

وقد أدركنا شهر رمضان في ذلك المكان فمسكنا الصوم، وكنا نقيم صلاة التراويح في كل ليلة نحن وأتباعي معي وكان الفجر في بلادهم يتقدم في طلوعه فكنا

نعرفه ونمسك في خامس ساعة ونصف بعد مضي نصف الليل، لكون أن الفلكيين أهل الخبرة عندهم عرفوني أن شهرين في الصيف بحكم لياليها عندهم ناقصة جدا.

* * *

وداع الملك

وفي اليوم السادس عشر من شهر رمضان نهار السبت[1] ذهبنا لنتودع من السلطان في مربعه المعلوم في قصره المرقوم لنؤدي الحقيقة على قوانين الطريقة لأنه كان سابقا عمل لنا الديوان وجمعنا إلى عنده وأكرمنا فاستأذنا لأجل ذلك فأذن لنا[2]. وجاء المرسال دويلروا ومعه الخدم والحشم فأخذونا إلى عنده، فلما دخلنا إلى الديوان رأينا السلطان جالسا على المرتبة العالية والخلق مصفوفين حوله من عبيد وخدم وأعيان دولته كذلك، فتقدم دويلورا ووقف من ورائه متكتفا واضعا يديه على صدره، وهم كلهم واقفون على هذه الحالة يمينا وشمالا، فحين دخولنا قام السلطان واقفا على قدميه ودعانا للقرب بين يديه فدنونا وسلمنا عليه. وقلت له: "ما حضوري بين يديك إلا لأجل الوداع من سعادتك، ونريد شكر فضلك وإحسانك الواصل إلينا من جنابك". فكان جواب سعادته لنا بواسطة المرسال دويلروا أن : "ما فيه شك أن عادتنا ووظائفنا للقاصد لطرفنا زيادة الإكرام ومبالغة الإنعام مع وفور المحبة خصوصا مع من كان من طرف الدولة العلية لأن المحبة بين الدولتين قديمة". ثم بعد ذلك أخرج السلطان مكتوبا من يده ودفعه لي وقال: لي "هذا لحضرة عالي الشأن السلطان

---

(1) 16 رمضان 1333 كان يوافق يوم الجمعة 11 يوليوز 1721 وتشير نصوص أخرى إلى أن مقابلة التوديع كانت في 12 يوليوز 1721.

(2) يميل النص العربي إلى التلخيص، فقد فصل النص الفرنسي في طريق الاستقبال، إذ يشير أولا إلى استعمال عربة الملك من أجل نقل السفير من مقر إقامته إلى القصر كما يورد عدد الخيول التي استعملتها حاشية الملك. ثم يعرض إلى المكان الذي نزل به داخل القصر ويورد أن فناء البلاط كان مليئا بالمستقبلين من الشخصيات الرفيعة ويذكر النص أيضا الشخصيات التي كانت واقفة إلى جانب الملك أثناء الاستقبال حيث يشير إلى العامل الذي كان يقف وراءه والمربي الذي كان على يمينه ودوق كونن تولوز إلى يساره وكذا حضور أبناء الوصي.
ويشير النص إلى الحركات التي قام بها السفير بمجرد رؤية الملك، كما نقل الحوار الذي دار بينه وبين الملك. ص.137 - 147.

بن السلطان جواب كتابه الذي جئتني به". فبعد أن أخذته منه قبلته، وكان دفعه لي بواسطة وزيره. وبعد حصولي عليه دفعته من يدي إلى ديوان أفندي أحد أتباعي، فبعد الوداع التام رجعت إلى مكاني. ثم أننا تودعنا مع من عرفناه منهم على حسب الترتيب. وجلسنا في مكاننا حتى انقضى شهر رمضان المذكور وعيدنا عيد الفطر يوم السبت.

* * *

المرصد الفلكي

ثم إن السلطان لويس المذكور شرع في عمارة موضع في مدينة باريس مخصوصا لمناظرة الأفلاك[1] فمكثنا ننظر كنهه وصفة بنائهم، وكان الواقف على هذا البناء أحد المعلمين الفلكية الماهر جدا في علوم الفلك اسمه قاسيني[2]، والمكان المشروع فيه هذا البناء مكان مرتفع جدا، فتعاطوا بنائه بالحجارة المنحوتة جملة من المعمارجيه والفعول، بعد أن خطوا مقداره وفصلوا أوضه وطبقاته، وجعلوا في كل طبقة داخلها أوض مملوءة من الآلات المختصة بعلم الفلك، ويوجد ذلك فيها متوقعا بالآلات الثقيلة وغير هذا معرفة الهلال عند طلوعه. ورأينا أيضا آلات أخر مصنوعة لجذب الماء من أسفل إلى العلو. وقد شاهدنا العجيب الغريب والوصف العجيب الذي يكل عنه الطرف ويحير فيه الوصف من ذلك المكان.

ورأينا مرايات نارية من الفولاد واسعة على مقدار الموائد الكبيرة موضوعة على كراسي قوائمها من الحديد، وحين حضورنا كانوا واضعين تحت ذلك حطبا ونارا وواضعين رصاصا مذابا في ذلك المكان لأجل آلات مخصوصة لأجل علم الهندسة

---

(1) انشىء المرصد الفلكي في باريس سنة 1667 بمبادرة من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر. وقد أشرف على بنائه (Perrault) (بيرو) من سنة 1667 إلى سنة 1672، ولم يكن هذا المرصد مخصصا للفلك بل لسائر العلوم الطبيعية كما يبين ذلك محمد أفندي، ومن هنا تنوع الأدوات التي توجد به.

(2) هو (Jean Dominique Cassini) المعروف بقاسيني الأول (Cassini 1er) ولد في نيس سنة 1625، اشتغل أولا بإيطاليا. ثم انتقل إلى فرنسا بطلب من كولبير (Colbert) وقد عهد إليه لويس الرابع عشر بإدارة المرصد الفلكي الذي تم انشاؤه سنة 1672. وقد توفي قاسيني سنة 1712.

وعلم الفلك، وكان هناك من الخلق ما لا يحصى. ثم أننا نظرنا كرة عظيمة تدل على كرة العالم كان يمكن لثلاثة رجال الدخول إليها، وفيها تراتيب الفلك ودورانه بالآلات المعلومة من شرايط الفولاد والزيابق وغيرها يعلم من ذلك أوائل الشهور العربية والرومية والقبطية والأيام وأسمائها وأوائل السنين والخسوف والكسوف وما يحدث في السنة من معرفة أعيادهم وزرعهم وغير ذلك من الفرتونات والفصول الأربعة وعدة أيامها وما يجتنب فيها وما يعمل بها. ولعمري أني ما شاهدت مثل ذلك لأن من أراد علم ذلك يمكنه بأدنى وقت بواسطة هذه الآلات معرفة ما ذكر ويصير حاذقا لبيبا من مشاهدة هذه الصناعات ويوجد فيما بينها من الحلقات الكثيرة والمتنوعة الأشكال المرقومات والمرسومات حتى صفة قرص الشمس وقرص القمر على جوانبها محرر وفي الوسط مسمار يشبه إبرة الساعات مدور الرأس مربع الجوانب، وحين دوران الحركات الحلقات يدور المسمار الذي هو مركز الحركات والسكنات أحيانا على الشمس وأحيانا على القمر يحصل الدوران، فحينما يستر هذا المسمار الشمس أو القمر يعرف من ذلك الخسوف والكسوف، وبعد الانكساف للشمس أو للقمر يستقيم المسمار المذكور ويرجع لحركته الأولى، وبعد ذلك أطلعونا على نظارة ترى منها النجوم نهارا، فبلّور هذه النظارة مقدار مرآة الحلاقين، والنظارة على غلظ ذلك وزيادة، وقد نصبوا في ذلك المكان عمودا طويلا كشبه صاري الغليون، وفي آخر هذا العمود دولاب منوع البكر وفوق الدولاب توجد آلات مرتبطة من أحد الأطراف في النظارة ومن الطرف الآخر معلق رصاص وحديد بحيث يمكن الرآي أن يحرك النظارة وكيفما أراد فيحركها من علوها أو من أسفلها كما يريد ميمنة أو ميسرة. فنظرت فيها إلى دائرة القمر فوجدته كبيرا للغاية يشبه دائرة الطبل الكبير وفي وسطه شق في نسقه ووجدت فيه تجويفا، فخيالات تلك الأماكن يراها الناظر كأنها مزرقة وفي نواحي القمر الأماكن الممهدة المتساوية يرى القمر أبيض منورا.

* * *

وبعد العيد المذكور اعتمدنا على الرجوع إلى بلادنا وأوطاننا، فجاء إلينا حضرة الدوق المتوكل على تعليم السلطان وأقاربه كلفنا وعزمنا على داره التي هي خارج المدينة المذكورة لنمضي إليها وأن الصيد هناك كثيرة فأبيت الذهاب معه وبذلت مجهودي في عدم الانصراف فما أمكن يرجع عني، فوعدته في اليوم الثاني فجاءني وأخذني، فذهبت معه إلى داره ووصلنا بعد الظهر، ثم إننا بتنا تلك الليلة عنده في داره.

وفي الصباح ذهبنا معه إلى محل الصيد، وكان ذهابنا في عرابایة هي خير من حصان لخفة جريانها، وكان معنا من أهله وجيرته وأقاربه ما ينوف عن مائة خيال والعرابایة المذكورة مسحوبة بأربعة أحصنة، فدخلنا إلى غابة واسعة مفصلة الطرقات ومختلفة النباتات، وفيها الأشجار الكثيرة مقطوع من أغلبها الجسور العظيمة. فمكثنا في تلك الغابة مدة ستة ساعات، وبعد ذلك رجعنا فدخلنا إلى قلعة حصينة داخلها بيت واسع مخصوص لدخول الوحوش التي رأيناها وذهبنا أيضا إلى موضعه المعلوم فرأينا أوض كثيرة مبنية من أنواع الحجارة وشبابيكها من الحديد و رأينا داخل الأوض ثلاث سباع كبار جدا للغاية، وفي محل آخر نمرين وفي بعض الأوض الأواخر وجدنا ذيبا وذيابا وثعالبا وحيوانات معلومة عندنا إسمها قرا قولاق، وكان أيضا من الحيوانات غير هذه كثيرة لا نعرف اسمائها ولا رأينا مثلها قط. وكانوا قد أتوا من بلاد الهند بوحوش مختلفة الجنس، بعضهم أظافر أرجلهم كأظفار الوعل وعلى عظم روس البقر وشعرهم يشبه شعر المعز وأعناقهم كأعناق الخيل وآذانهم وروسهم وأفواههم وصورهم مثل الوعل. وقد رأينا هناك أيضا وحشا يشبه الجذي ولكنه أبيض يشبه البرد. ومن هناك انتقلنا إلى مكان آخر ورأينا الطاووس وأنواعه من الأشكال الأبيض الخالص وغيره، ورأينا درتين ما رأيت مثلهما قط كل منهما على قدر الدجاجة ومناقيرهما كأنها فم أسنان وأذنابهما في طول نصف ذراع وريشهما كلون الرماد وهما مزينتان على مخالبهما نقط سوداء.

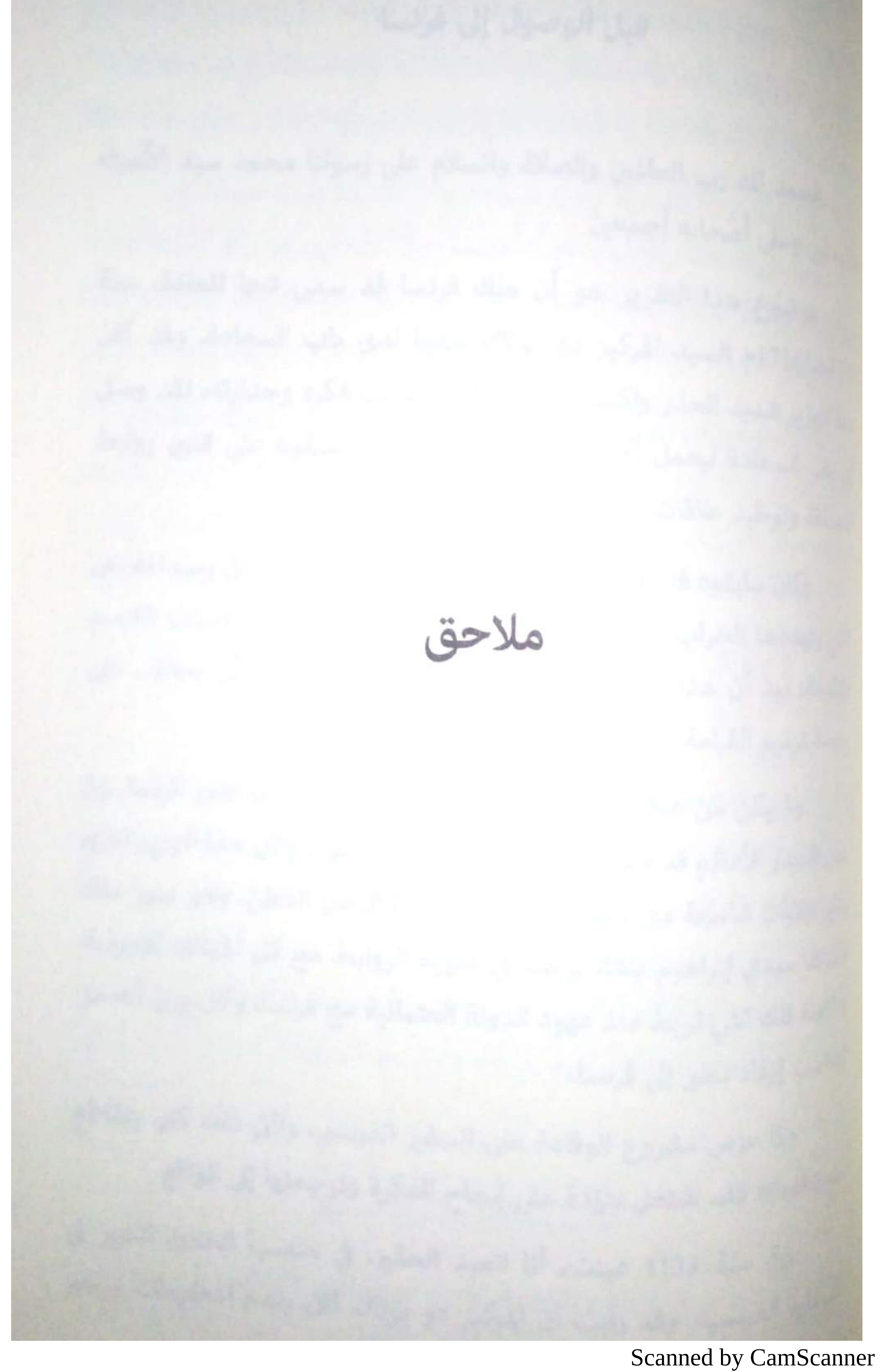
لقد رأيت العديد من الطيور الجديدة بالنسبة لي والتي دهشت برؤيتها. وبالنسبة للطيور الصغيرة فهناك عدد لا حصر له تغرد بأصوات مختلفة.

كل صباح طيور الغابة

تطرب بتغريدها فضائلك

ورأيت أيضا في أحد الأحواض قنادس مع صغارها تارة تسبح على سطح الحوض وتارة أخرى تخرج للتنزه على ضفافه. وكل نوع من الطيور له حوضه الخاص مع نافورة، وكل نوع يشرب من حوضه. وخلاصة القول إنني كنت سعيدا لمشاهدة مضمار لم يكن بوسع الملوك مشاهدة مثله.

انتهى النص.



ملاحق

الملحق الأول

قبل الوصول إلى فرنسا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين وعلى أصحابه أجمعين

موضوع هذا التقرير هو أن ملك فرنسا قد سمى تبعا للعادة، سنة 1128هـ/1716م السيد المركيز دو بوناك سفيرا لدى باب السعادة، وقد كان هذا الوزير شديد الحذر واكتسب شهرة كبيرة بسبب فكره وجدارته، لقد وصل إلى باب السعادة ليعمل أكثر من كل السفراء الذين سبقوه على تمتين روابط الصداقة وتوطيد علاقات الود القائمة بين الدولتين.

وكان سابقوه قد طلبوا ترميم كنيسة القيامة (Camame) في بيت المقدس التي يتهددها الخراب، وفي كل مرة كان تأجيل النظر يطال كل طلبات الترميم المقدمة. بيد أن هذا السفير استطاع بكياسته وحسن تدبيره أن يحصل على رخصة ترميم القيامة.

ولم يكن من عوائد الدول الإسلامية إيفاد سفراء إلى امبراطور فرنسا، ولم يكن الصدر الأعظم قد باشر مراسلات مع السفير المذكور، وكان هذا الوزير الذي يدير ولايات شاسعة من الدولة العثمانية، وهذا الرجل الفطن، وهو صهر ملك الملوك، سيدي إبراهيم باشا، يرغب في تقوية الروابط مع كل الممالك الأوربية، وخاصة تلك التي تربط منذ عهود الدولة العثمانية مع فرنسا، وكان يرى أنه من المناسب إيفاد سفير إلى فرنسا.

ولما عرض مشروع الوفادة على السفير الفرنسي، ولأن ذلك كان يتقاطع مع تطلعاته فقد اشتغل بتؤدة على إنجاح الفكرة وترجمتها إلى الواقع.

وفي سنة 1133 عينت، أنا العبد الحقير، في منصب الخازن الكبير في السفارة الفرنسية. وقد رأيت أن المركيز دو بوناك كان يقدم المعلومات ويخبر

إدارته ببعثتي ويعمل كل ما في وسعه من أجل أن تنفذ المهمة في أسرع وقت. ولم يكن يوجد في القسطنطينية أي سفينة تقلني، فاستقدم واحدة من إزمير (Smyrne) وهي مكونة من 26 مدفعا. وقد أقلعت السفينة المذكورة في 4 ذي الحجة من نفس السنة في يوم الإثنين وهو الموافق ل 26 أكتوبر.

وفي المساء نشرنا أشرعتنا نحو وجهتنا. راجيا من الله أن يعينني على قضاء هذه المهمة وأن يعيدني سالما إلى مسقط رأسي. وسأعمل منذ اليوم، بعون الله العلي القدير، على تدوين مجريات الرحلة يوما بيوم ووصف الأماكن التي أمر منها والمواقع التي سأراها ومن الله توفيقي.

مساء الجمعة كان الجو غائما ينذر بأمطار عاصفية. وعلى بعد ساعتين من الإبحار، وبمجرد الابتعاد عن لابسيك (Lampsec) بمرحلة ولما كان ربان السفينة يتناول العشاء كادت السفينة تنقلب، فظهر الهلع على جميع الركاب وارتفع صياح الجميع في كل الاتجاهات طلبا للنجدة والمساعدة.

إني انتحبت طويلا ولم يظهر لنجدتي إنسان

كما لو أنه تحت القبة الزرقاء لا يوجد سكان[1]

وأخيرا ظهرت عمارة كانت قريبة منا كان ربانها قد سمعوا صياح نجدتنا فأرسلوا إلينا زورقا. فأنزلت بعض مرافقي لأعلم قاضي وسردار لابسيك بالحالة التي نحن عليها. ولما صار هذاين الموظفين على علم بحالتنا جمعا بعض السفن الصغيرة غير أنهما لم يبعثوا بهم سوى وقت الشفع[2]، أي قبل طلوع النهار بساعتين. غير أنها لم تعننا في شيء، فخلال الثمانية الساعات التي قضيناها في الانتظار تعرض مركبنا لهزات كبيرة وارتطمت مؤخرته ومقدمته بالأرض مرات عديدة. وهو ما عاد بنا إلى

(1) هذه ترجمة لبيت من الشعر باللغة الفارسية، يقول البيت:

فرياد بسي كردم وفرياد رسي نيست

كويا كه درين كنبد فيروزه كيسي نيست

النص العثماني، ص. 75.

(2) اختلط الأمر على كلان وعلى من استعمل نص كلان. فقد استغل هذه المناسبة للتعريف بالمذاهب الإسلامية السنية.

الصياح مرة أخرى، فقد كنا نصيح: يا الله لقد انكسرت عمارتنا ولا أحد أتى لنجدتنا، إن مصيرنا بيد الله". لقد كنا قد استسلمنا للقدر عندما ارتفع صراخ أحد البحارة يزف لنا خبرا مفرحا: " لقد عادت العمارة للعمل"، فتحول الانتحاب إلى شكر لله. ينبغي أن نقر أن الملائكة انقدتنا بعد أن كنا قد استسلمنا للقدر إذ لم نكن نتخيل أننا سننجو بهذه الطريقة. فالحمد لله.

وبعد تجاوزنا لهذا الخطر نشرنا الأشرعة للإبحار عبر الدردنيل، وخلال هذه الرحلة توقفنا لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى، وكان يوم الاثنين، واصلنا الطريق في التاسعة صباحا.

كانت الرياح تهب في الاتجاه المناسب فحللنا بجزيرة سريغو C(erigo)[1]، وقد تواصل هبوب الرياح الغربية لمدة اثنى عشرة يوما، وعلى إثرها وصلنا يوم الخامس والعشرين من الشهر القمري (ذي الحجة)، وكان يوم الاثنين في الساعة السادسة أو السابعة صباحا، إلى مالطة، فدخلنا إلى مينائها وارسينا به.

قضينا في جزيرة مالطة أسبوعا كاملا. وفي الثالث من محرم[2]، وكان يوم الأربعاء الذي يوافق يوم قاسم[3]، طلعت ريح نجمي، فقررنا أن ننتهز فرصة الاستفادة منه غير أن الرياح كانت تهب في الاتجاه المعاكس للميناء، وهو ما جعل مغادرة المرفأ صعبة للغاية وبالتالي أجبرنا على طلب مساعدة المالطيين بمدنا بمراكب لسحب عمارتنا إلى خارج المرفأ. فأمدونا بمركبين ربطناهما بواسطة حبال غليظة بعمارتنا فسحباها إلى خارج المرفأ.

كانت الشمس عند المغيب عندما وصلنا قبالة لينوزة (Linosa)[4]، وبعد ذلك انقلبت الرياح وغدت السماء سوداء عاصفة، ورغم كل ما واجهنا من

---

(1) يقصد (Cythera) وهي الجزيرة الواقعة بين جزيرة كريت والبلبونيز.

(2) ويوافق 4 نونبر 1720.

(3) يعتبر هذا اليوم أي 4 نونبر يوما مهما في التقويم الضريبي للدولة العثمانية.

(4) جزيرة إيطالية تقع أرخبيل (Pelages) بين مالطة وتونس.

صعوبات استطعنا الوصول إلى بانده لريه (Pantelleria)[1]، وكانت الأمواج العالية كالجبال تستنفذ قوانا على الصبر، تراجعنا إلى الجزيرة بيد أنها كانت صغيرة وبدون مرفأ فمكثنا بها على أمل الاستراحة ولكننا لم نجد بها مكانا لحمايتنا من الريح نستطيع أن نرسو به. وقد أبعدتنا الرياح والأمواج العاتية عن الجزيرة بخمسة عشرة ميلا. فاضطررنا على أن نترك عمارتنا طوع الريح فتراجعنا على نحو مخجل والصاري عاري من الأشرعة حتى مالطة.

وفي اليوم السادس من مغادرتنا الجزيرة يوم الأحد مساء وصلنا إلى مرفأ في جزيرة أخرى تسمى لامبه دوزه (Lempadouze) والتي تبعد بثمانين ميلا، وهناك أرسينا في 9 محرم [2] ولم نكن قد ابتعدنا عن مالطة التي غادرناها منذ ستة أيام سوى بثمانين ميلا. وجزيرة لامبه دوزه عبارة عن صحراء تمتد على أربعة وعشرين ميلا. وكانت في القديم عبارة عن حصن مسكون غير أنه تعرض للخراب من قبل علي باشا[3] الذي دمره عن آخره. ولا يوجد به الآن سوى رجل دين وثلاثة رجال يعيشون من صدقات المارين به. ولا يوجد به ماء جارية سوى في حفرة أقامها الراهب ورجاله. كما لا يوجد بمرفأ الجزيرة سوى ثلاثة أو أربعة مراكب.

وفي 13 من نفس الشهر، وكان يوم الخميس في منتصف النهار، هبت ريح شرقية بعون الله، وبعد أن توكلنا على العلي القدير، رفعنا الشراع لمواصلة الرحلة. وعندما كنا على بعد ثلاثة أميال قبالة قليبية (Calipia) على الساحل الإفريقي ورأس بوركلو[4] (Cap Bourglu) سررنا برؤية بلاد البربر بواسطة المنظار.

---

(1) وهي جزيرة تقع على بعد 100 كلم من سردينيا في اتجاه تونس.

(2) الذي يوافق 10 نونبر 1720.

(3) يقصد قليج علي باشا (1500 - 1587) أمير البحر زمن السلاطين سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث. وقد كان علي باشا قد شارك في حصار مالطة سنة 1565 وفي الحملة على قبرص سنة 1570 وقاد حملة الشؤم ليبانتو في أكتوبر 1571. وقاد قليج علي باشا الحملة على تونس سنة 1574 وعلى إثر نجاحها رقي إلى رتبة قبودان دريا على عهد سليم الثاني، وهي الوظيفة التي حافظ عليها زمن السلطان مراد الثالث.

(4) (Cap Bon) الذي يقع في أقصى شمال شرق تونس.

ثم واصلنا السير في اتجاه سردينيا، وبعد 15 ميلا من ذلك تجاوزنا جزيرة القديس بطرس، وبذلك أخذنا بالإبحار في عرض البحر، وبتوفيق من الله وصلنا إلى تولون يوم الجمعة صباحا 30 محرم[5].

(5) نسجل هنا خطأ فالتاريخ الموافق لـ 30 محرم هو 14 ديسمبر 1720، بينما تجمع الوثائق الفرنسية على وصوله إلى تولون يوم 22 نوفمبر بعد 45 من مغادرته إستانبول.

الملحق الثاني

رحلة العودة

وقد دعوني لزيارة دار السلاح ولكن بسبب اقتراب الليل عدنا إلى القصر وكانت ساعة العشاء قد حلت فجلسنا إلى المائدة وشرع الموسيقيون في عزف سيمفونياتهم.

وبعد العشاء دعوني إلى مشاهدة الحديقة عبر النوافذ التي تشرف على الحوض. كنت أقول في قرارة نفسي : "ماذا سأرى من عجائب في الليل". وما كدت ألقي نظري في الحديقة حتى شاهدت أكثر من عشرة ألاف مصباح مصفوفة بطريقة تحول الليل إلى نهار مضيء. وكانت المصابيح تملأ كل جنبات الحوض الكبير ويعكس الماء أضوائها فتحدث أثرا رائعا. وعلى رأس الجسر الذي يوجد في الجهة المقابلة لبوابة القصر وضعوا عشرين قطعة مدفعية، وقامت هذه القطع بطلقات مدفعية في الوقت نفسه الذي أطلقت فيه شهب اصطناعية في شكل هلال يحمل تاجا ملكيا. وقد كان الفرنسيون يميزون بين ملوك الأمم برموز خاصة، وكان الهلال رمز سلطاننا. وكانوا يريدون تبليغي هذه الخصوصية. وبعد ذلك أطلقوا ثلاثة شهب من اليمين وثلاثة من اليسار وأخذت هذه الشهب بالاشتعال في الوقت الذي أطلقوا فيه رميات مدفعية من نافورة الماء والطاحونة والمضمار.

وقد قضينا قرابة ساعتين في تتبع هذا الاحتفال الذي وجدته رائعا. وعندما انتهى الاحتفال جاء الدوق ليجاملني مرة أخرى بالقول: "لقد قمت بكل هذه الأشياء من أجل تسليتك، أتمنى أن أكون نجحت في ذلك، ولو كان في مقدوري لفعلت أكثر من ذلك." والحقيقة أنني حظيت منه بكل تشريف ولياقة. وكان هذا الأمير، وكما سبق أن ذكرت، من الأقرباء المقربين للملك، وكان مشرفا على تربيته وكان أحد أسياد البلاط وله نفوذ كبير. وقد وجدت فيه أكثر مما سمعت عنه.

وفي يوم الخميس في الصباح الباكر ودعته وأخذت طريق العودة إلى باريس. وصلت إلى مقر إقامتي في حدود الساعة الثانية بعد الزوال ووجدت جماعتي متأهبة للسفر. وفي المساء جاءني المترجم وأخبرني أنهم سيحملون لي هدايا من الملك في اليوم الموالي وأن الوزير أخبره أنني سأجد عبيدا سيعطونني أياهم في سيت. فقلت له : "هذا أمر جيد" ولو أنني كنت أقول في قرارة نفسي: "هذا سيكون افتراء جديد".

وفي صباح اليوم الموالي وكما كنت أخمن في توزيع الساعات العادية وفي تقسيم ما يسلمونني وصلت الهدايا مصحوبة مع مدخلين قالا لي: "هذه هدايا الملك الموجهة إلى سعادتكم". لقد جرت العادة في فرنسا على أن الملك يعطي للسفير رسما مرصعا بالياقوت، وبما أنني كنت قد صرحت أنه لا يسمح لنا بتسلم الرسوم، فقد استبدلوا عن الرسم بحزام مرصع بالألماس وسجادتين مصنوعتين في باريس ومرآة وبندقية وزوج من المسدسات وعلبتين مصفحتين من النحاس المذهب وإنائين من البورسلين لوضع المثلجات وعلبة سكاكر. وقد فهمت من حديث المدخل أنه كان يقول: "لقد أصبحت أغنى رجل في العالم ولا ينبغي أن تخاف الفقر". بالنسبة إلي اعتبر أنني كنت محظوظا بالمنحة التي كنت أحصل عليها منهم لإنفاقها خلال سفري وتوزيعها على أتباعي...

في يوم السبت عزمت على الرحيل، غير أنني وجدت الجماعة ما تزال قابعة في باحة مقر إقامتي، ولما سألت عن السبب أخبروني أنه بإمكاني الذهاب وستلحق بي الجماعة بعد ذلك علما أنه تم استعجالي في جمع الحقائب منذ بداية شهر رمضان حتى ترسل قبل سفري بأسبوع. وقد جمعتها وأنزلتها إلى الباحة. وبدون أن يبدو على النبيل أي ارتباك أخبرني أن الأمتعة ستشحن بعد مغادرتي. أخبرت النبيل أنني لن أغادر قبل أن يركب أتباعي في العربات ويسيرون أمامي. هذا الحادث أدى إلى تأجيل سفري إلى اليوم الموالي. استطرد هنا وأقول إن هذا النبيل كان أكثر كذبا من الوزير. لقد أجبرني هذا الحادث على العمل إلى المساء لشحن أحمالي. وفي يوم الأحد التاسع من شهر شوال أخذت الطريق إلى موئلي.

وصلت في البداية إلى بلدة تدعى أصون (Essonne) والتي تبعد بسعة أميال عن باريس. والفرنسيون لا يقيسون المسافات بالزمن (بالساعات) بل بالأميال، وعلى قائمة السفر يستخدم هذا التعبير. والأميال ليست متساوية و يميز فيها بين الكبيرة والصغيرة وتسمى الأميال الكبيرة "مرحلة"[1]. وفي بعض الأماكن يساوي الميل ساعة من السير وفي أماكن أخرى يكون أقل أو أكثر من ذلك.

ومن هنالك وصلت إلى فونطينبلو (Fontainebleau)[2] التي تبعد بسبعة أميال، وفيها قضيت يوما واحدا. ويوجد بها قصر في حوزة الملك يستحق أن يرى. وبهذا القصر حديقة كبيرة جدا مزينة بحوض دائري يتوسطها، ويمكن التنزه فيها بواسطة الشراع. وبوسط هذا الحوض بني كشك جميل جدا تستطيع الوصول إليه بواسطة المراكب. وفي مكان آخر من هذه الحديقة يوجد حوض آخر غير واسع ولكن طوله يتجاوز 1000 قدم.

أما بالنسبة للقصر فهو غاية في الجمال مذهب وشاسع، وبما أنه قصر قديم فقد عني به الملوك و زادوا في بنائه. وقد أروني به غرفة بنيت منذ ثلاثمائة سنة حافظت على زينتها وتمويهها إلى درجة تعتبر أحسن الزينة بقية البنايات.

ولقد أنفقت كل وقتي في زيارة هذا القصر. وفي اليوم الموالي، الذي هو يوم الأربعاء، بتت في بلدة تسمى فيل نوف (Villeneuve) التي تبعد بستة أميال. ومن فيل نوف قطعت مسافة ستة أميال لأصل إلى سانس (Sens) وبعده بسبعة أميال أخرى وصلت إلى جوانيي (Joigny) ومنها إلى أوكسير (Auxerre) ستة أميال. ومن هذه البلدة إلى نويي (Noyers) سبعة أميال. ومن نويي إلى مونستيي (Monstiers) ستة أميال. ومن مونستيي شانسو (Chanseaux) ثم من شانسو إلى ديجون (Dijon).

---

(1) يساوي الميل 1481 مترا، فيما تبلغ المرحلة 4000 متر.

(2) شرع في بناء قصر فونطينلو زمن الملك فرانسوا الأول سنة 1527 على أنقاض حصن سان لوي. وقد استكمل بناؤه زمن الملوك هنري الثاني وهنري الرابع ولويس الثالث عشر.

قضيت يوما واحدا في ديجون وهي عاصمة إقليم بورغون (Bourgogne) وهي مدينة جميلة وليست كبيرة جدا بيد أنها تتمتع بموقع مهم. وفي كل الأماكن التي كنت أتوقف بها لم يتخلف المسؤولون عن الحضور لزيارتي، وكانوا يحملون معهم هدايا صغيرة من فواكه ومربيات.

وفي يوم الجمعة غادرت ديجون ووصلت إلى بلدة بوم (Beaume) بعد قطع مسافة سبعة أميال. ومن بوم إلى بلدة شالون (Chalons) ستة أميال، ونمت ببلدة تورنوس (Tournus). ثم قطعت مسافة خمسة أميال لأصل إلى بلدة ماكون (Macon) وهذه البلدة هي منتهى مقاطعة بورغون.

ومن ماكون قطعت مسافة ستة أميال لأصل إلى قرية فيل فرانش (Villefranche) ومنها وبعد قطع مسافة خمسة أميال وصلت إلى مدينة ليون.

ومدينة ليون مدينة كبيرة وجميلة جدا. تقع على قدم بحيرة، ويعبرها نهر عظيم، وهو نهر صون، ويقسمها إلى شطرين يتم الربط بينهما بواسطة ثلاثة جسور. ويجري نهر الرون (Rhone) بالقرب من المدينة ويلتقي نهر صون في طرف المينة. ويشكل هذا التلاقي نهرا عظيما. ومن كل المدن التي زرتها تعتبر ليون أكثر المدن سكانا وأكبرها على الإطلاق. وهي مبنية بشكل متين وتعرف حركة تجارية كبيرة. وبهذه المدينة يصنع القماش الفرنسي والداما والفرو الذي يوزع في كل الأرجاء ويرسل حتى إلى باريس. وقد شاهدت حرفا مرتبطة بالقماش. والخلاصة هي أن مدينة ليون تستحق أن ترى كباريس الثانية. وخلال إقامتي بالمدينة توصلت بكل تشريف. وكان حاكم المدينة هو الماريشال فيل لوروا (Villeroi) غير أنه عين من ينوب عنه بسبب انشغاله بتربية الملك. وكان هذا النائب يتردد على زيارتي يوميا ويصطحبني لزيارة المدينة على عربته. وخلال الأسبوع الذي قضيته بالمدينة كان حريصا على تلبية جميع رغباتي. وقد زارني ابن الماريشال، الذي كان يشغل أرشيدوق المدينة وهو صاحب النفوذ والسلطة في المدينة، مرتين ودعاني لزيارته في بيته وقدم لي وجبة رائعة. وبما أن بيته كان يقع على ضفاف النهر فقد أجرى مناورات للقوارب الفرنسية. فعندما حل الليل زينوا

المدينة بالأضواء، وكانت ضفاف النهر مزينة بالقناديل، فأقاموا وسط النهر قلعة على عوامات. وكل ذلك كان مصاحبا بإطلاق الشهب الاصطناعية في السماء.

وقد حرص انتدنت (L'intendant) المدينة على زيارتي مرتين ودعاني للطعام عنده. وقد عاملني بطريقة رائعة. ودعا كل أجمل سيدات المدينة لحفل الغداء، وكان جمعا فاتنا ينبغي أن أعترف أنه لم أشهد له مثيلا في باريس. وفي الليل أطلقوا من جديد الشهب الاصطناعية وطلقات البنادق.

كنت قضيت ثلاثة أيام في ليون عندما اتخذت قرار المغادرة، غير أنهم نصحوني بإرسال اتباعي قبلي وأسافر في الطريق المائي، فقد يستغرق السفر ماءا يومين فقط فيما يستغرق السفر البري ستة أيام. ولأن قضاء ثلاثة أيام بليون يعتبر غير كاف فقد اتبعت النصيحة. فأرسلت الكتخدا وحاشيتي مع الأمتعة وبقيت مع تسعة أو عشرة من أتباعي إلى يوم الخميس الرابع من شهر ذي القعدة حيث ركبت عمارة مواصلا طريقي المائي.

في المساء وصلت إلى بلدة تسمى تورنون (Tournon) لم أنزل به وقضيت الليل في المركب. وفي اليوم الموالي وصلت إلى بالانك (Palanque) على جسر سانت إسبري[1] (Saint Esprit) وهناك نزلت لأقيم في فندق. ولم تكن جماعتي قد وصلت بعد، فقد أخذوا في رحلتهم المسار التالي: من ليون توجهوا إلى فيينا (Vienne) وهي بلدة توجد على بعد ستة أميال من المدينة. ومن فيينا إلى روسيون (Roussillon) خمسة أميال. ومن روسيون إلى بلدة تان (Tin) سبعة أميال وتجاوزوا تورنون (Tournon) بالمركب. ومن تورنون توجهوا إلى بلدة فولت (Volte) التي تبعد بستة أميال. ومنها إلى فيفيي (Viviers) ستة أميال. بعدها التحقوا بنا في سانت اسبري التي تبعد عن فيفيي بستة أميال. غادرنا سانت إيسبري كلنا لنصل إلى بلدة روسيل (Rossel) وهي قرية صغيرة لا تبعد إلا بخمسة أميال. ومنها إلى مدينة نيم (Nimes) ستة أميال.

---

(1) يتعلق الأمر بجسر شيد في نهاية القرن الثالث عشر أما القلعة (بالانكه بالتركية) فقد شيدت في القرن السابع عشر.

وقد شاهدت في مدينة نيم بناية من الحجارة المنحوت والتي تشبه برجا، ويعود تاريخ بنائها إلى ما قبل ألفي سنة، وفيما يلي مناسبة بنائها:

"قبل مجيء السيد المسيح عليه السلام، كانت الوثنية منتشرة بشكل كبير، وكان معتنقوها يسجنون كل أتباع موسى عراة في هذا الحصن، وكان أتباع موسى يشتمونهم قائلين: لماذا تعبدون أصناما صنعتموها بأيديكم بالرغم من وجود خالق لكل الأشياء؟". وجدران هذه البناية عالية جدا وتحيط بها مقاعد على درجات السلالم مفصول بعضها عن البعض الآخر. وكان الناس بعد تجمعهم يجلسون على هذه المقاعد ويشاهدون كيف تلتهم الأسود هؤلاء المساجين، ويخاطبونهم قائلين:" هذا عقاب من يعارض عبادة الأصنام". ويبقى على المؤرخين أن يتأكدوا مما رويته. أما بالنسبة لي أنا فقد رأيت بناية ضخمة جدا ووجدت بها كل الأشياء كما وصفت لي. وفي السابق كانت ثمة ساحة غير أنهم بنوا فيها بيوتا. وأستطيع أن أزعم أن جنس هذه المدينة ينبغي أن يكون جميلا، فقد رأيت بها نساء غاية في الجمال.

ومن نيم توجهت إلى مدينة مونبليي الذائعة الصيت والتي لا تبعد سوى بثمانية أميال. وقد أخبرت بأن هناك مركبين مخصصين لسفري إلى إستانبول كان قد وصلا منذ خمسة عشرة يوما إلى ميناء سيت حيث رسيا به في انتظار وصولي.

عندما وصلت إلى فرنسا ونزلت في ميناء تولون وكانت به ترسانة لبناء السفن وعدد كبير من المراكب، ولكن الوباء حل به بمجرد مغادرتي له، ولم ينجو من الوباء سوى 6000 من أصل 38000 الذين كانوا مسجلين على دفاتر الإحصاء أثناء مروري بالمدينة. وكان هذا الوباء سببا في قطع الطرق المؤدية إلى المدينة ونقلت الأنشطة إلى بريست (Brest) التي توجد على المحيط الأطلسي، والذي كان به مرفأين للملك الأول هو روش فور (Rochefort)والثاني هو بريست. كان بانتظاري مركبان، الأول يحمل أربع وستين قطعة مدفع، والثاني يحمل اثني وخمسين قطعة. وقد انطلقا من بريست منذ عشرين أو خمسة عشر يوما قبل مغادرتي باريس من أجل انتظار وصولي إلى سيت.

في اليوم الموالي لوصولي إلى مونبلييه أرسلت الكتخدا والمترجم لكي أؤمن سفر أتباعي. وبعد يومين أخذت الطريق إلى سيت التي وصلتها بعد ست ساعات. وكان جزء كبير من أتباعي قد أركب. اما من تبقى مع من يرافقوني فسيركب بعد يومين. وقد ركبت أنا نفسي يوم 14 ذي القعدة، وكان يوم الأحد، بعد أن أوكلت أمري إلى الله تعالى وهو خير الوكلاء وأسلمت نفسي إلى العناية الإلهية.

كان النبيل الذي رافقني خلال سفري قد غادر إلى باريس بمجرد وصولي إلى سيت. وقضيت ثلاثة أيام في هذه المدينة لأركب أتباعي والحال أن من واجبه أن يظل برفقتي حتى أغادر المرفأ لكنه مخافة إحراجه بالسؤال عن الأشياء المكسرة [1]أو الضائعة فقد تخلى عنا خلسة وهو ما يعبر عن دناءة سلوكه. لن أضيف شيئا في هذا الموضوع فليذهب إلى الجحيم[2].

اعترف أنه عندما وصلت إلى سيت فكرت في الوعد الذي قطعه الترجمان على نفسه من قبل الوزير بحصولي على عبيد طلبتهم. وقد أثرت الأمر مع النبيل المرافق عندما هم بوداعي: "إن وزيركم لم يكف عن الكذب علي في كل الأمور التي طرحتها معه. وهذا افتراء آخر أكتشفه الآن في موضوع قضية العبيد: أليس هذا الأمر مخجلا بالنسبة لفرنسا. أليس مخجلا أن يكذب شخص من دعائم الإمبراطورية الفرنسية بشكل فاضح على سفير؟ إذا كانت نيته أن يتحاشاني فقد كان بإمكانه أن يقوم بذلك بشتى الوسائل دون أن يخجل بشكل فاضح..." وأنهيت كلامي قائلا: "أخبروه عندما تلتقون به أنني أعرفه تمام المعرفة".

مساء يوم الاثنين وبعد أن قمت بالدعاء التالي: "الله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم الرفيق"، رفعنا الأشرعة في اتجاه الوطن. وفي اليوم الثامن من إبحارنا وصلنا إلى تونس وأرسينا قبالة سيدي بوسعيد. وقد أرسل إلي باي تونس

(1) تكشف الوثائق اللاحقة، خاصة المراسلات التي تبادلها (M.de Bernage) و(Dubois de Montpellier)، أن بعض الأجزاء من إطار المرآة التي قدمت هدية إلى محمد أفندي كانت قد انكسرت خلال السفر. وكان محمد أفندي قد تركها في سيت لترمم على حساب الملك أو على حساب الناقل.
ينظر: Veistein, p 168, note. 267

(2) توجد عبارة في النص الفرنسي اعتبرها فانشتين من أصل عربي وهي كالتالي:
"Qu'il s'en aille jusqu'ou le conduira le chemin de la mère de Cacham".

هدايا ثمينة حملها رجال معتبرون قابلتهم على متن السفينة. وبما أن سفينتنا كانت ترسو على بعد سبعة أو ثمانية أميال من حلق الوادي (Kulkiluad)لم أشأ وضع قدمي على الأرض حتى لا أتعرض لمتاعب واكتفيت بإرسال إبني والكتخدا لزيارة الباي والداي[1] وقد استضافهما الباي لمدة يومين وأحاطهما بكل تشريف.

وكان قائد السفينة يقدم لي الوجبات كل يوم، ولكن الباي أرسل إلي كمية كبيرة من المؤن مما جعلني في غنى عن كل شيء، وقد أعدت إليه المؤن وقلت له أن يتصرف فيها.

وبعد الإقامة لعدة أيام على ظهر السفينة في تونس، وعندما هبت رياح مناسبة أوكلت أمري إلى الله ورفعنا المرساة لنتابع طريقنا إلى وجهتنا، فلم تمض سوى خمسة أيام حتى بلغنا قبالة جزيرة موره (Moree) ومتون (Modon)، وفجأة تبدلت الأحوال الجوية وأصبحت الرياح عاصفة فأبعدتنا عن عن متون التي كنا بالقرب منها. وأخذتنا الرياح إلى قرب جزيرة كريت (Candie). وكانت السفينة الأخرى على مقربة منا ولا يفصلنا عنها سوى ميل واحد، ولكن عندما اشتدت الرياح وتعالى الموج لم نعد نستطيع رؤيتها. وبقينا مدة ثلاثة أيام وليلتين لعبة للأمواج. وبعد ذلك بدأ الريح يهدأ، وتبع العاصفة هدوء لمدة يومين وهو ما جعلنا نتجاوز رأس نابل مالفوزي (Cap de Naples de Malvoisie) ومنه توجهنا إلى جزيرة ميل (Mil) [2]. وقد بلغنا الجزيرة في اليوم الثاني وأرسينا بمينائها الواقع جنوب الجزيرة. وكان بهذه الجزيرة ربانين يشتغلان لحساب السفن الفرنسية التي تمر من هنالك، وقد صعدنا إلى السفينة وبعد مرور ثلاثة أيام في انتظار تحسن حالة الجو، أبحرنا في اليوم الرابع. فحمدا لله العلي القدير أن هذه الريح كانت مناسبة لتقدمنا، وقد رأيت أن آمالنا تحققت وقد وصلت في اليوم الثالث الذي يوافق الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة الشريفة إلى ميناء دار السلطنة العلية والحمد الله المعين والصلوات والسلام على سيدنا محمد و آله أجمعين آمين.

---

(1) يتعلق الأمر بباي تونس الحسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية الذي حكم ما بين 1705 و1740.

(2) يقصد جزيرة ميلو (Milo) في أرخبيل سيكلاد (Cyclades) وتعتبر محطة أساسية للسفن الفرنسية التي تمخر عباب المتوسط الشرقي.

الملحق الثالث

كرونولوجيا السفارة

السنة	الشهر	اليوم	المراحل/الأحداث
1718	نونبر		المحاولات الأولى للسفير الفرنسي (Bonnac) لطلب ترخيص ترميم كنيسة القيامة
1719	نهاية بريل		بداية أشغال الترميم في الكنيسة
	أكتوبر	9	تلميح الصدر الأعظم للسفير بوناك في موضوع السفارة.
1720	أغسطس	10	التعيين الرسمي لمحمد أفندي سفيرا للباب العالي في باريس
	أكتوبر	7	مغادرة السفير القسطنطينية
	نوفمبر	22	الوصول إلى تولون (Toulon)
	22 نوفمبر-10 ديسمبر		الكرنطينة الأولى في تولون
	ديسمبر	16	الوصول إلى سيت (Sète)
1721	17 ديسمبر-25 يناير		الكرنطينة الثانية في (Maguelon)
	يناير	26	أغد (Agde)
		31	كاستل نودري (Castelnaudary)
	فبراير	5-1	تولوز (Toulouse)
		12-8	بوردو (Bordeaux)
		13	بلاي (Blaye)
		14	بوتي نيور (Petit-Niort)
		15	بونس (Pons)
		16-19	سانت (Saintes
		19	سان جان دانجيلي (Saint Jean d Angely
		20	بريو (Brioux)
		21	شوني (Chaunay)
		22	ليزنيان (Lusignan)
		23-25	بواتييه (Poitiers)
		25	شاتيلرو (Chatellerault)

(La Salle) لاصال	26		
(Reignac-sur-Indre) رينياك سور اندر	27		
(Amboise) أومبواز	28		
(Blois) بلوا	1	مارس	
(Saint Laurent-des-Eaux) سان لوران ديزو	2		
(Orleans) أورليان	2-5		
(Toury) توري	5		
(Estampes) إيتامبس	6		
(Corbeil) كورباي	7		
الوصول إلى فوبورغ دو سانت أنطوان (Faubourg de Saint Antoine)	8		
الدخول الرسمي إلى باريس	16		
استقبال الملك	21		
استقبال الوصي	23		
استقبال دو بوا (Dubois)	26		
أمسية في الأوبرا	27		
صيد الطيور في فانسين	17		
أول زيارة لفيلروا (Villeroi)	19		
استقبال فيلوروا	21		
حضور الاستعراض العسكري	3	ماي	
باليه اللوفر	10		
أمسية أخرى في الأوبرا: (Omphale)	13		
زيارة الماركيز كانياك وزوجته	15		
زيارة الانفليد (Les Invalides)	25		
حفل عشاء عند فيلوروا (Villeroi)	28		
زيارة حديقة النباتات (Le Jardin des plantes)	29 مي		
زيارة مدون (Meudon) و(Versailles) وماري (Marly)	7-11	يونيو	
زيارة (D'Ozembray)	19		

	21-22	حضور باليه في الأوبرا
	23	حضور حفل الشهب الاصطناعية في ساحة (Greve)
	26	بداية شهر رمضان
يوليو	6	زيارة لوماري (Le Marais)
	8	حفل استقبال في السربون
	12	زيارة لوداع الملك
	15	زيارة لوداع الوصي
	18	زيارة المكتبة الملكية
	25	نهاية شهر رمضان
	29-31	إقامة في شانتيي (Chantilly)
أغسطس	1	تسلم الهدايا
	3	مغادرة باريس
	6	فونتنبلو (Fontainebleau)
	9	أوكسير (Auxerre)
	10	نويي (Noyers)
	11	مونبارد (Montbard)
	12	شانسو (Chanceaux)
	13-14	ديجون (Dijon)
	20-28	ليون (Lyon)
سبتمبر	2-5	مونبليي (Montpellier)
	7	مغادرة سيت (Sete)
أكتوبر	8	الوصول إلى إستانبول ومقابلة الصدر الأعظم

البيبليوغرافيا

باللغتين العربية والعثمانية

بنحادة (عبدالرحيم)، "بين الرحلة السفارية والتقرير الديبلوماسي: السفارتنامه العثمانية"، ضمن: **التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000، صص. 103-125.

بنحادة (عبدالرحيم)، "سفيران مسلمان في مدريد"، ضمن: **السفر في العالم الإسلامي، التواصل والحداثة**، تنسيق عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2003، صص. 47-66.

بنحادة (عبدالرحيم)، **العثمانيون: المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، دار سبو - مراكش 2008.

جودت باشا (احمد)، **تاريخ جودت**، ترجمة عبدالقادر الدنا، مطبعة بيروت العربية، 1308.

رفيق (أحمد)، **لاله دوري**، إستانبول 1913.

راشد (محمد)، **تاريخ راشد** (1660-1721)، الجزء الخامس، ص.ص 330-367.

زيادة (خالد)، **تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا**، منشورات معهد الإنماء العربي، بيروت 1983.

سفارتنامهء فرانسه، أثرء محمد أفندي، مطبعهء علميهء عثمانيه، إستانبول.

عزمي أفندي (أحمد)، **سفارتنامه**، إستانبول 1886.

محمد جلبي، **جنة النساء والكافرين**، ترجمة خالد زيادة، القاهرة 2014.

يكرمي سكز جلبي محمد أفندي، باريس سفارتنامه سي، مطبعهء أبوالضياء.

-A. Adile, *Un diplomate turc auprès du Roi Soleil*, Istanbul, 19956.

-D'Aubigny, "Un ambassadeur turc a Paris sous la Régence, Ambassade de Mehmet Efendi en France, d'après la relation écrite par lui- même et des documents inédits", in *Revue d'Histoire Diplomatique*, III, 1et 2, Paris 1889.

- Akgunduz (Akinci), *Turk- Fransiz Kultur Iliskeleri (1071- 1859)*, Ankara 1993.

- J-B. Bacque Grammont, S. Kunarelp et F. Hitzel, *Les représentants permanents de France en Turquie (1536- 1991) et de la Turquie en France (1797- 1991)*, Varia Turcica, XXII/1, 1991.

- *Encyclopedie de l'Islam*, "Ahmed III", "Elçi", "Istanbul", "Mehmed Efendi".

-Gocek (Fatma Muge(, *East Encounters West, France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, Oxford university Press,1987.

- Hammer (Joseph Von), *Histoire de l'Empire ottoman*, traduit de l'Allemand par J.Hellert, Paris 1835- 1843.

- D'Hosson (Mouradgea), *Tableau général de l'empire Othman*, Imprimerie de Monsieur, Paris , 1787.

- Islam Ansiklopedisi (DIA), "Sefâretnâme", 36: 288-294.

-Karal (Enver- Ziya), "Tanzimattan Evel Garblasma Hareketleri 1718-1839", in *Tanzimat I*, Istanbul 1940.

- Korkut (Hasan), "Osmanli Sefaretnâmeleri Hakkinda Yapilan Arasltirmalar ", Türkiye Arastirmalari Literatür Dergisi, I, 2003, 2 : 491-511.

- Lewis (Bernard), *Comment l'Islam a découvert l'Europe*, traduit de l'anglais par Annick Pélissier, Gallimard- Paris 1984.

-Lewis (Bernard), *Le langage politique de l'Islam*, Traduit de l'anglais par Odette Guitard, Ed. Gallimard – Paris 1989.

-Lewis (Bernard), *Que s'est-il passé ? L'Islam, l'occident et modernité*, Gallimard- Paris 2002.

- Mantran (Robert) Ed., *Histoire de l'Empire ottoman*, Fayard, Paris, 1989.

-Martin (Henri), *Histoire de la France*, Paris 1844.

- Mehmed Efendi, *Le paradis des infidèles, Un ambassadeur ottoman en France sous la Régence,* introduction et notes par Gilles Veinstein, Maspero, Paris,1981.

- Pakalin (Mehmet Zeki), "Sefaretnâme", *Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlügü*, III, Istanbul 1993, pp. 138-139.

- Polatci (Türkan), «Osmanli Batililasmasinda Yirmisekiz Çelebi Mehmed Efendi'nin Paris Sefaretnamesi'nin Önemi», *Çankiri Karatekin Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi*, 2 : 249-263.

- Polatci (Türkan), Saglam (Tugba), « Osmanli Devleti'nde Bati Imaji», *Studies of the ottoman Domain*, I, 2011, 1 :37-62.

- *Relation de l'ambassade de Mehmet Efendi a la cour de France en 1721 écrite par lui-même et traduite par J.C. Galland*, Paris – Ganeau, 1757.

- Sahin (Esin), «edebî bir tür olarak klâsik edebiyatimizda sefâretnâmeler», *Türkiyat Arastirmalari Enstitüsü Dergisi*, 2007, 33:61-68.

- Shaw (Stanford), *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 Vol, London, 1977.

- Shaw (Stanford), *Between Old and New: The Ottoman Empire under Sultan Selim III (1789-1807)*, Harvard, 1971.

- Soucek, "Certain Types of Ships in Ottoman- Turkish Terminology", in *Turcica,* VIII, 1975, pp.232-249.

- Unat,(Faik Resit), *Osmanli Sefirleri ve sefaretnameleri*, Ankara, 1968.

- Unat (Fail Resit), "Ahmet III. Develtenie ait bir Islahat Takriri", in *Tarih Vesikalari*, I , 1941, pp.107-121.

- Uzuncarsili (Ismail Hakki), *Osmanli Devletinin Merkez ve Bahriye Teskilati*. Ankara 1984.

- Uzuncarsili (Ismail Hakki), *Osmanli Devletinin Saray Teskilati*, Ankara 1984.

- Uzuncarsili (Ismail Hakki), *Osmanli Tarihi,* Vol.3. Part.1 Ankara 1983.

- Yerasimos (Stephane), *Deux Ottomans à Paris sous le Directoire et l'empire,* Sinbad Actes Sud, Paris 1998

فهرس الأعلام والمصطلحات

ملحوظة: لا يشتمل هذا الفهرس على: الدولة العثمانية وإستانبول وفرنسا وباريس ولويس الخامس عشر والوصي، لكثرة ترددها في صفحات الكتاب.

إلى جانب إشرافه على عدة كتب جماعية ونشره لمجموعة من الأبحاث في مجال الدراسات العثمانية، صدرت للأستاذ عبد الرحيم بنحادة الكتب التالية:

رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691، منشورات ارتياد الآفاق، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2009.

العثمانيون: المؤسسات والاقتصاد والثقافة، اتصالات سبو، الدار البيضاء 2008.

سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا، طوكيو 2005.

رسالة في اليهود، منشورات مجموعة البحث في تاريخ الأقليات، الرباط 2005.

المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلوميات، تونس 1998.

وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور السعدي، منشورات تينمل، مراكش 1994.

تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، لمؤلف مجهول، مراكش .1993

كانت مناسبة سارة أن اكتشفت بإن الزميل الباحث الدكتور عبد الرحيم بنحادة قد عثر على ترجمة عربية للتقرير السفاري الذي أنجزه محمد أفندي عن فرنسا بمناسبة زيارته لها على رأس سفارة أوفدها السلطان العثماني أحمد الثالث إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر عام 1721.

وقد أعدّ الدكتور بنحادة دراسة أكاديمية تفصيلية شرح فيها ظروف الرحلة وأسبابها، فعرض لأهم السفارات العثمانية إلى العواصم الأوروبية منذ القرن السادس عشر ... وأبرز كيف أنّ سفارة محمد جلبي أفندي إلى باريس قد حظيت باهتمام خاص من طرف كبار رجال الدولة ومثقفيها ... كما ألهمت الفنانين وأثارت فضول الفرنسيين من كل الطبقات. فضلا عن كون التقرير الذي وضعه محمد أفندي بعد عودته من فرنسا أصبح من أبرز النصوص التي كتبها السفراء العثمانيون وشكل نموذجًا نسج على منواله السفراء الذين أوفدوا بعده إلى عواصم أوروبا، كما كان له تأثير لدى الطبقة الحاكمة في إستانبول لجهة الأخذ بنمط الحياة الفرنسية ...

ولا بدّ من التنويه بالجهد الذي بذله الدكتور بنحادة في إحاطته بكل ما يتعلق بهذه السفارة وظروفها وأثرها وأهميتها، وبأهمية نشر النص العربي في المقارنة بين مختلف الصيغ التي توفرت حول نص الرحلة. وهو بذلك يقدم إضافة جديدة بإتاحته الاطلاع على ترجمة عربية مبكرة، بما يعنيه ذلك من ولادة جديدة لنص ما زال قادرًا على أن يقول لنا الكثير عن بدايات تبدل نظرة المسلمين إلى أوروبا الحديثة ...

د. خالد زيادة

عبد الرحيم بنحادة

أستاذ التاريخ الحديث

معهد الدوحة للدراسات العليا

صورة الغلاف: لوحة تمثل خروج محمد أفندي من حدائق (Tuileries Gobelins)


ISBN 978-9954-39-460-1

الثمن : 60 درهما / 10 EUROS